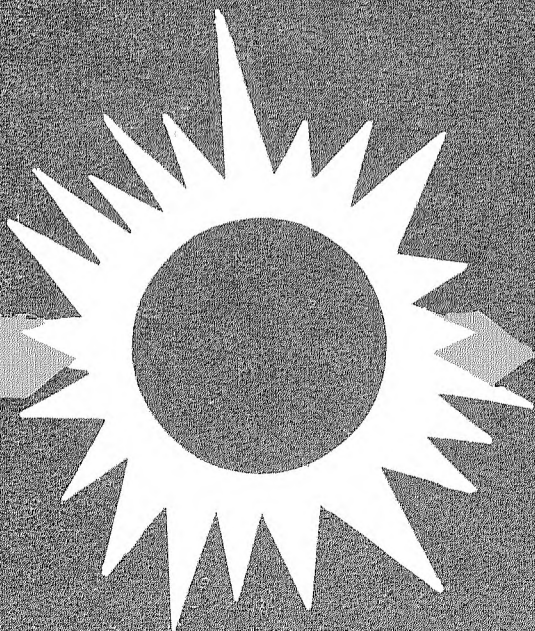


محمد فرج

الطريق إلى يشرب



الطَّرِيقُ إِلَى يَثْرَبَ

محمد فُرج

الطريق إلى الثروة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - أنا خيرهم نسبا

في الصحيح من حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » .

وروى عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « لم يزل الله عز وجل ينقلني من الأصلاّب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة صفياً مهذباً لا تشعب شعبتان إلا كنت من خيرهما » .

وسأل هرقل إمبراطور الروم أبا سفيان عن نسب رسول الله فقال - المعروف تاريخاً أن أبا سفيان كان شديد الخصومة عنيف العداوة لرسول الله - « إنه من أوسط قريش » والأوسط عند العرب هو الأعلى والأشرف ، وعلق هرقل على قول أبي سفيان بقوله : « هكذا يبعث الأنبياء من أشراف الناس » . وعن ابن عباس قال : « قال رسول الله ﷺ إن الله حين خلقني جعلني من

خير خلقه ، ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتاً وأنا خيرهم نسباً » .

ورسول الله ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، ويتصل نسبه عليه السلام بسيدنا إسماعيل الابن البكر لسيدنا إبراهيم أبي الأنبياء من زوجه هاجر .

وكان سيدنا إبراهيم قد جاء بهاجر وابنها إسماعيل ، وهو مازال رضيعاً إلى واد قفر لحياء فيه ، جديب لازرع فيه ، قاحل لا ثمر ولا ماء فيه ، وتركها ثم انطلق عائداً وحده ، وهو يخاطب ربه : (ربنا إني أسكت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

وكان إبراهيم عليه السلام مستجاب الدعوة عند ربه ، فعاش إسماعيل مع أمه في هذا المكان القفر الذي تركها فيه ، والذي أصبح بفضل من الله تبارك وتعالى مجتمعاً زاخراً ، وحياة حافلة ، تصب فيه أنهار الحياة المتدفقة بالنعيم من كل أفق .

وأقبلت على المكان قبيلتان من قبائل اليمن هما جرهم وقاطوراء ، وهم أبناء عم وشاركوا إسماعيل وأمه الحياة في هذا الموضع . . وتزوج إسماعيل إحدى بنات جرهم واسمها رَعْلَة بنتُ مُضَاض بن عمرو ، وولد له منها اثنا عشر رجلاً .

تولت جرهم أمر تنظيم المجتمع الجديد ، إلا أن نزاعاً وقع بين القبيلتين .

بسبب تنافسها على الملك بمكة فاقتتلا قتالا شديداً ، جرهم يقودها مضاض ، وقاطوراء يقودها السميدع ، وانتصرت جرهم وقتل السميدع ، وأصبح الأمر لها فزادت سطوتها وانتشر نفوذها ، وقوى سلطانها ، إلا أنهم بغوا بمكة واستحلوا الحرمات ، وأباحوا المنكرات ، وظلموا من يدخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدى إليها ، واستهانوا بأمر الكعبة حتى إنهم كانوا يمارسون الزنا فى داخلها .

وكانت قبيلة خزاعة قد وردت المكان وعاشت فيه ، فأغضبها سلوك جرهم فعزمت على حربهم وإخراجهم من مكة ، وآذَنُوهم بالقتال فاقتتلوا ، وكانت الغلبة لخزاعة فأخرجتهم من مكة ، وقيل إن السماء تدخلت إلى جانبهم ، فسلط الله على جرهم الرعاف ، فأفنى غالبيتهم ، وفرّ الباقون بأنفسهم إلى اليمن . وتولت خزاعة أمر مكة والبيت ، وكان كبيرهم عمرو بن لحي الذى ذهب شرفه فى العرب كل مذهب ، حتى صار قوله ديناً متبعاً لا يخالف ، وقد بلغ من الشرف ما لم يبلغه عربى قبله ولا بعده فى الجاهلية ، وكان لا يتدع بدعة إلا اتخذوها شرعة ، وكانت له بصمات على المجتمع المكي ، فهو أول من أطعم الحجاج سدائف الإبل (جمع سديف وهو شحم السنام) ولحمها على الثريد ، ويروى أنه كان ينحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة ، ويكسو عشرة آلاف حلة ، وهو أول من أحلّ أكل الميتة ، فقد كانت القبائل من ولد إسماعيل تحرم أكل الميتة حتى زعم عمرو أن الله تعالى لا يرضى تحريم أكل الميتة ، وقال : « كيف لاتأكلون ماقتل الله وتأكلون ماقتلتم ؟ » ، وقد روى البخارى أن رسول الله قال : رأيته (يعنى عمرو) يؤذى أهل النار بريح قصبه (أى أمعائه) ، وهو

أول من غير دين إبراهيم ، فقد استمر العرب منذ عهد إبراهيم على دينه إلى زمن عمرو فشرع الضلالات ، وسيب السائبة ، وبحر البحيرة ووصل الوصيلة^(١) ، وقال عنه رسول الله إنه أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وكان عمرو قد خرج إلى الشام ، فرأى بأرض البلقاء العماليق يعبدون الأصنام فسأهم : ماهذه ؟ قالوا : « هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا » ، فسأهم أن يعطوه صنماً فأعطوه صنماً يقال له هبل ، فقد به مكة وأقامه في بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، وانتشرت على أثر ذلك عبادة الأصنام ، وهو أول من أدخل الشرك في التلبية .

وظلت ولاية البيت لأبنائه من بعده ، وكان آخرهم حليل بن أبي حبشية بن سلول ، وفي عهده وصل مكة قصي بن كلاب الجد الرابع لرسول الله . . وصلها من بلاد الشام حيث عاش الفترة الأولى من حياته ، فقد رحلت به أمه بعد موت أبيه إلى الشام مع زوجها ربيعة بن خزاع ، فلما كبر وقع بينه وبين آل زوج أمه شر ، فعبروه بالغريرة ، وقالوا له : « ألا تلحق بقومك وببلادك فإنك لست منا » ، وعرف من أمه حقيقة أصله ، قالت له : « بلادك خير من بلادهم ، وقومك خير من قومهم ، أنت أكرم أباً منهم ، أنت ابن كلاب بن مرة ، وقومك بمكة عند البيت الحرام ، تفد إليه العرب ، وقد قالت لى كاهنة

(١) كان العرب إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر مجرواً أذنها وشقوها وامتنعوا عن ركوبها وسميت البحيرة ، وإذا أنتجت عشرة أبطن إناث تهمل ولا تتركب ولا يشرب لبنها وسميت السائبة ، أما الوصيلة فهي الشاة التي تنتج سبعة أبطن فإن كان السابع أنثى لا يتفع فيها النساء بشيء إلا أن تحرت فيأكلها الرجال والنساء وإن كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فتركه معه ويتفع بها الرجال دون النساء فإن تحرت اشتركوا فيها .

رأتك صغيراً إنك تلى أمراً جليلاً» .

واشتاق قصي إلى أهله وبلده ، فخرج مع حجاج قضاة وقدم مكة ، فعرف أهله له فضله وشرفه ، وأكرموه وقدموه ، وأعجب به حليل وبرجلته وخلقه فأحبه وأنزله من نفسه منزلة ولده ، وزوجه ابنته حُبي ، فكان له منها أولاد هم عبد الدار وعبد العزى وعبد مناف ، وكثر ماله ، فلما قرب أجل حليل أوصى بأمر البيت إلى قصي .

وكان قصي يرى أن قريشاً وبني كنانة أقرب إلى إسماعيل من خزاعة ، فدعاهم لإخراج خزاعة من مكة ، فانضموا إليه وأجابوه ، وانضم إليه أيضاً أخوه رزاح بن ربيعة ومن تبعه من قومه من قضاة ، وحاربه و انتصر عليهم وأخرجهم من مكة ، وأصبح الأمر كله له ، وأصبحت شئون مكة ملك يديه ، فكان بيده السقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة الحجابية ، وعاشت مكة فترة زاهية تحت حكمه ، فقد جمع قريشاً بعد تفرقها في البلاد وجعلها اثنتي عشرة قبيلة^(١) ، وأمرهم بأن ينووا بيوتهم داخل الحرم وحول البيت « إن فعلتم ذلك هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم » ، وأنشأ دار الندوة وكانت أول دار بنيت بمكة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، فكانت نادياً لهم ولقومه ، وكانوا يجتمعون بها للمشاورة في أمورهم وأحوالهم ، وخاصة أمور الحرب والسلم والزواج والطلاق والصلح والخصام ، وكانوا يقيمون بها الولائم ويبرمون العقود ، وكان يعقد بها لواء الحرب ، وكان لا ينكح رجل امرأة من قريش إلا فيها .

(١) كانت قريش قد تفرقت في الشعاب فجمعها وسمى مجمع .

وكان قصي يتولى إطعام الحجاج ، ودعا قريشاً أن تخرج في كل موسم من أموالها ما يكفي لإطعام الحجاج . قال لهم : « يامعشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، قد خصكم الله بذلك وأكرمكم ، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم » ، وحرّم قصي الخمر ودعا القوم إلى اجتنابها وقال لهم : « إنها تصلح الأبدان وتفسد الأذهان » . ومات قصي وبموته تفرق أمر قريش .

شرف في زمن قصي وفي حياته ابنه عبد مناف الجد الثالث لرسول الله ﷺ ، وكان اسمه أصلاً المغيرة ، وكان يقال له قر البطحاء لحسنه وجهاله ومناف أصله مناة ، وهو اسم صنم كان أعظم أصنام الكعبة ، وجعلته أمه خادماً للصنم فنسب إليه وسمى عبد مناف ، وروى عنه أنه قال : « أنا المغيرة بن قصي أوصى قريشاً بتقوى الله جل وعلا ، وصلة الرحم » .

وعندما كبر قصي ورق عظمه جعل لابنه عبد الدار كل ما كان بيده من أمر قومه ، وكان لا يخالف أبداً ، وصار لعبد الدار الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ودار الندوة .

فلما قضى عبد مناف وعبد الدار ، أجمع بنو عبد مناف (عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل) على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار ، اقتناعاً منهم بأنهم أولى بذلك لشرفهم عليهم وفضلهم ، وتفرقت بذلك قريش ، فانضم البعض إلى بني عبد الدار حتى لا يتزع منهم ما كان قصي قد جعله لهم ، وانضم البعض الآخر إلى بني عبد مناف لأنهم يرون أنهم أحق من بني عبد الدار ،

وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً أخرجتها لهم أم حكيم بنت عبد المطلب عمة النبي وقالت : « من تطيب بهذا فهو منا » ، وغمسوا أيديهم فيها ومعهم حلفاؤهم ومسحوا الكعبة بأيديهم وتعاهدوا فسموا « المطيبين » ، وفي ذات الوقت تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ، وأخرجوا هم أيضاً جفنة مملوءة بالدم وقالوا : « من أدخل يده في دمها فلعق منه فهو منا » ، وسموا : « لعقة الدم » وانتهى الخلاف بينهم بأن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف ، وأن تكون الحجابة واللواء لبني عبد الدار ، وأن تكون دار الندوة مشتركة بينهم ، وتحالفوا على ذلك .

وتولى أمور بني عبد مناف ابنه هاشم وهو عمرو العلاء وسمى كذلك لعلو مرتبته وكان أخاً توأماً لعبد شمس ، وعند ولادتهما كانت رجل هاشم ملصقة بجبهة عبد شمس ، وعند نزوعها منه سال الدم ، وفسر الكثيرون وقتها سيلان الدم بأنه سيكون بين الأخوين دم ، ووقعت فعلاً بينها العداوة التي اتصلت فيما بعد بأولادهما .

ساد هاشم قومه بعد أبيه عبد مناف وأغضب ذلك أمية بن عبد شمس فدعا عمه للمنافرة فأبى هاشم ذلك لسنه وعلو قدره ، فلما رأى منه تصميمًا على ذلك وافق بشرط وقال له : « أنافرك على خمسين ناقة سود الحديق تنحر بمكة والجللاء عن مكة عشرين » ، فرضى أمية بهذا الشرط ، وجعلاً بينهما كاهناً من خزاعة فلما نزلوا عليه ، قال لهم قبل أن يخبروه خبرهم : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر » وهكذا نصر الكاهن هاشماً على

أمية الذى خرج إلى الشام حيث أقام بها عشر سنين ، على حين نحر هاشم الإبل وأطعم الناس .

وهاشم من أكابر رجال قريش وساداتهم وحكامهم ، استقرت له الرئاسة وصارت قريش له تابعة تنقاد لأوامره وتعمل برأيه ، ومن أهم مادعا إليه قومه ما جاء فى قوله لهم : « نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصي بن كلاب ، وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومعدن المجد ، ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته ، إلا مادعا إلى عقوق العشيرة وقطع رحم . . أيها الناس الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كثر ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غير متقلب) ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله فاصطبغوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديمكم ، وحاموا الخليط يرغب جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة . .

وأصاب الناس سنة جذب شديد ، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى دقيقاً وكعكاً ، وقدم به ، فهشم الخبز والكعك ونحر الجزر وجعله ثريداً ، وأطعم الناس حتى أشبعهم ، فسمى بذلك هاشماً ، وقال عنه بعضهم : « لم تزل مائدته منصوبة لارتفاع فى السراء والضراء » .

وكان هاشم قد تزوج من بنى النجار ، وكانت زوجته وهى سلمى بنت عمرو بن زيد لا تتكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها ، فإن كرهت رجلاً فارقت ، وكانت لاتلد ولداً إلا فى أهلها ، وقبل هاشم ذلك

وصحبها معه إلى مكة ، فلما أنقلت بالحمل تركها عند أهلها في المدينة لتضع حملها ، ومضى هو في رحلة إلى الشام ، فمات بغزة ، وولدت زوجته ابنه شيبة الحمد ، الذي عرف فيما بعد باسم عبد المطلب ، وظل بالمدينة سبع سنين ، وروى أن رجلاً شاهده مع غلمان يلعبون بالسهم وسمعه يقول : « أنا ابن سيد البطحاء » ، فسأله : « ممن أنت يا غلام ؟ » ، فقال : « أنا شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف » ، فلما قدم الرجل مكة قصّ على عمه المطلب الأمر ، فرحل على الفور إلى المدينة ، فلما رآه عرفه ، وقال له : « أنا عمك وقد أردت الذهاب بك إلى قومك » ، ثم حمّله على ناقته وانطلق به إلى مكة ، فلما قدمها قالت قريش : « هذا عبد المطلب » ، فعرف بهذا الاسم . . وقيل في سبب تسميته شيبة الحمد لكثرة حمد الناس له ، لأنه كان ملجأ قريش في الأمور ومفرزها في النوائب ، وكان سيدها شرفاً وكمالاً وفعالاً ، وقيل إنه سمي بهذا الاسم لأنه ولد وفي رأسه شيبة ، وقيل لأن وسط رأسه كان أبيض ، وقيل إنه سمي بذلك تفاؤلاً بأنه سيبلغ سن الشيب .

ومن أهم ما تميز به عبد المطلب أنه حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، وأنه كان مجاب الدعوة ، وعرف بأنه الفياض لجوده وكرمه ، وكان يقال له : « مطعم الطير » لأنه كان يطعم الطير والوحوش في رموس الجبال . . وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيئات الدنيا . . رفض عبادة الأصنام ، ووجد الله سبحانه وتعالى ، وكانت له آراء وردت في القرآن الكريم منها الوفاء بالنذر ، ومنع نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهي عن قتل الموءودة ، وتحريم الخمر والزنا ، وهو أول من سنّ

رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والحبيشة وإلى الشام . . وأثر عنه قوله : « لن
يخرج من الدنيا ظلم حتى يستقم منه ، وإن وراء هذه الدار داراً أخرى يجزى
فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءاته » .
ولقد سقى الله الناس بعبد المطلب وفي هذا قال الشاعر :
بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا وقد عدمنا الحيا واجلوز^(١) المطر

(١) اجلوز : أى تأخر زمنه .

٢ - ابن سيد البطحاء

ذكرت كتب السيرة أن عبد المطلب عاش مائة وأربعين سنة ، وقد حفلت حياته بأحداث عظام عاشتها قريش ، وكان له في كل حدث موقف يؤكد شرفه ومنزلته وعلو مكانته وكماله ، وكانت هذه الأحداث ذات شأن كبير في أحوال المجتمع المكي ، كما كانت كلها تشير إلى قرب مولد رسول الله ﷺ ، فقد تحدث به الكهان والأخبار والراسخون في العلم ، واتفقوا جميعاً على أن زمان النبي المنتظر قد قرب ، وأن أوانه أصبح وشيكاً .
ويأتى حفر زمزم في مقدمة هذه الأحداث .

فما إن تولى عبد المطلب السقاية ، حتى بات يفكر في وسيلة سهلة يسر بها للحاج سبيل الماء ، بلا عنت ولا جهد ولا مشقة ، وكان قد سمع عن بئر زمزم التي تفجرت مياهها على زمن جده إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ثم طمستها جرحهم وأخفت معالمها ، حين اضطرت إلى التزوج من مكة ، وصار مكان زمزم مطوياً لا يعرف شيء عنه ، يتناقل الناس أحاديثها ولا يعرفون مكانها ، وبات عبد المطلب يفكر في أمر هذه البئر التي نضب ماؤها ، محاولاً أن يكشف مكانه ليستعين بمياهه في سقاية الحاج .

وخلال أربع ليال متتالية رأى في منامه هاتفاً يأمره بحفر زمزم . . وجاءه

الهاتف في الليلة الأولى وقال له : « احفر طيبة » ، فسأله عبد المطلب :
 « وما طيبة ؟ » فانصرف عنه الهاتف ، ثم جاءه في الليلة الثانية ، وقال له :
 « احفر برة » فسأله « وما برة ؟ » ، فانصرف عنه ، ثم جاءه في الليلة الثالثة ،
 وقال له : « احفر المصنونة » ، فسأله : « وما المصنونة ؟ » ، فانصرف عنه ، ثم
 جاءه في الليلة الرابعة ، وقال له : « احفر زمزم » ، فسأله : « وما زمزم ؟ » ،
 فقال : « لا تُثْرِفْ أبداً ، ولا تَدم (لاتفرغ من الماء) ، تسقى الحجيج الأعظم ،
 وهى بين الفرث والدم (ما يتخلف من كروش الذبائح) ، عند نقرة الغراب
 الأعصم (قيل أحمر المنقار والرجلين وقيل أبيض البطن وقيل أبيض
 الجناحين) » ، واتجه عبد المطلب إلى الكعبة حيث رأى الغراب الأعصم ينبش
 برجليه وينقر بمنقاره في المكان الذى يذبح فيه ما يهدى إلى البيت ، فلما تبين له
 المكان أتى بمعوله وبدأ الحفر ، ومعه ابنه الوحيد الحارث ، يعاونه فيحمل
 التراب بعيداً ، وكان عبد المطلب يرتجز وهو يحفر .

لاهم قد لبيت من دعانى وجئت سعى المسرع العجلان
 بُثَّتَ اليقين صادق الإيمان يتبعنى الحارث غير وان
 جذلان لم يحفل بما يعانى لاهم فلتصدق لنا الأمانى

ولما أدركت قريش أن عبد المطلب سينال وحده هذا الشرف العظيم ،
 سارت إليه تمنعه من الحفر « والله لا نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر
 عندهما » ، إلا أنه كان مصمماً على أن يُتم ما أمر به فقال : « والله لأمضين لما
 أمرت به » ، فلما أدركوا تصميمه وعزمه على المضى فيما بدأه ، خلوا بينه وبين

الحصر ، ونجح عبد المطلب وكشف عن البئر ، وأصاب حاجته ، فصاح :
 « هذا طَوَيَّ إسماعيل . . هذه بئر زمزم . . هذه سقاية الحاج » ، وعَزَّ على
 قريش أن يكون له وحده البئر فقالوا له : « إنها لبئرنا إسماعيل ، وإن لنا فيها
 حقاً ، فأشركنا معك » ، فرفض : « ماأنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خصصت
 به دونكم ، وأعطيته من بينكم » ، واحتكم الطرفان إلى كاهنة بنى سعد
 هُدَيم ، وخرج بعض القوم قاصدين الكاهنة ، وكانت في موضع ما بين الحجاز
 والشام ، فلما قاربوا حدود الشام نفذ ما كان معهم من الماء في منطقة لاما
 فيها ، وكان القيظ شديداً والحر بالغاً ، فظمثوا حتى أبقنوا الهلكة ، وتوقعوا
 الموت ، ولكن عبد المطلب لم يئس وقال : « والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا إلى
 الموت لعجز ، فلنضرب في الأرض فعسى الله أن يرزقنا ، فانطلقوا » وركب
 راحلته فلما همت به قائمة ، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فتزل
 وشرب ، وشرب أصحابه (كان قد خرج معه نفر من بنى عبد مناف) ، ودعا
 الخارجين من قريش (وكان قد خرج نفر من قريش من كل بطونها) « هلموا
 إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا » ، فشربوا واستقوا ، ثم لاموا أنفسهم
 لموقفهم من عبد المطلب وقالوا له : « والله لالخاصمك في زمزم أبداً ، إن الذي
 سقاك الماء بهذه الفلاة ، هو الذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقائك راشداً » .
 ويرتبط هذا الحدث العظيم بحدث آخر له أهميته وخطره ، فإن عبد المطلب
 حين اعترضت قريش على حفرة بحثاً عن زمزم ، لم يكن لديه من الولد سوى
 الحارث فقط ، وكان من الطبيعي ألا يملك هو وابنه القدرة على الدفاع عن
 نفسه إزاء هذه الجموع الغفيرة من قريش ، ولهذا نذر إن رزقه الله عشرة من

الأولاد الذكور يمنعونهم ، ليدبحن أحدهم عند الكعبة « الله علىّ النذر ، لن أتأني الله عشرة من الأولاد الذكور ، لأنحن أحدهم عند الكعبة » ، وفي رواية « أن أجعل أحدهم لله نحيرة » .

ووهب الله عبد المطلب ما أَرْضَى نازع الكثرة في نفسه ، ووفاء للنذر جمع أولاده وأخبرهم بنذره ، فما اختلف عليه منهم أحد وقالوا : « أوف بنذرنا وافعل ماشئت ، الأمر لك ونحن بين يديك » ، وضرب عبد المطلب بالأفداح ، فخرج قدح عبد الله ، وكان أحب بنيه إليه كما كان اسمه أحب الأسماء إلى الله تبارك وتعالى : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » ، وقاد عبد المطلب ابنه إلى المذبح ليوفي بنذره ويدبحه .
ولنا هنا وقفة .

فإن رسول الله ﷺ قال : « أنا ابن الذبيحين » ، ورسول الله يعنى بذلك أباه عبد الله وجده إسماعيل بن إبراهيم أبي الأنبياء ، فإن إبراهيم كان قد رأى في منامه أنه يذبح ابنه قرباناً لله ، والمنامات عند الصالحين من عباد الله بمثابة وحي وأمر مباشر ، فصدع للأمر الصادر إليه في المنام وعرضه على ابنه إسماعيل : (قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى) ، فتقبل إسماعيل القضاء بالرضا وقال : (ياأبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) ، فلما همَّ إبراهيم بذبحه ناداه ربه بالكف فقد صدقت الرؤيا ، ورأى إبراهيم بالقرب منها كبشاً كبيراً فذبحه فدية عن ولده (فلما أسلم وتلّه للجبين . وناديتاه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم) .

نعود بعد ذلك إلى قصة ذبيح عبد الله .

كان لعبد الله بين أهل مكة معزة ومحبة ومكانة لما كان يتميز به من خلق وديع وعقل رزين ولسان عذب ، ولما كان يتمتع به من نقاء النفس وعفة الروح وسمو الوجدان والمشاعر ، فلما قاده أبوه إلى المذبح اجتمع القوم من قريش يحولون بينه وبين أبيه : « يا عبد المطلب ، إنك بهذا تريد أن تسن فينا سنة سيئة ، لقد علمت أنك شيخنا ورئيسنا ، فلو مضيت تذبح ولدك اليوم ، فإنه سيتبعك رجال من قومك ، فيذبحون أبناءهم تأسيساً بك واقتداءً لستك ، فنصبح وقد غدا الذبيح في أبنائنا سنة متبعة » ، وطالبوه بالعدول عن قراره : « يا الله عليك يا عبد المطلب إلا عدلت عن هذا الرأي ، فإن فيه فناءنا وذهاب قوتنا ، فإن كان لابد لك من الوفاء بنذرنا ، فلنحتكم نحن وأنت إلى عرافة يثرب ، فما حكمت به فهو الحكم بيننا وبينك » .

ولما سمع بنو مخزوم بالأمر - وهم أحوال عبد الله - قالوا لعبد المطلب : « يا أبا الحارث ، إنا لانسلم ابن أختنا للذبيح ، كلا لا يكون ذلك أبداً ، وفينا روح ، وإنا لنفديه بجميع أموالنا من طارف وتالد » ، وأنشد المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم :

يا عجباً من فعل عبد المطلب وذبحه ابناً كمثل الذهب
كلا وييت الله مستور الحجب ما ذبح عبد الله فينا باللعب
فدون ما يعني خطوب تضطرب

وقبل عبد المطلب أن يحتكم إلى عرافة يثرب التي سألتهم : « كم دية الرجل

عندكم ؟ » فقالوا : « عشرة من الإبل » ، فأشارت عليهم : « ارجعوا إلى بلدكم ، وقدموا هذا الغلام الذى عزمتم على ذبحه ، وقدموا معه عشرة من الإبل ، ثم اضرخوا عليه وعلى الإبل القداح ، فإن خرج القدح على الإبل فأنحروها ، وإن خرج على صاحبكم فزيدوا على الإبل عشرة حتى يرضى ربكم » ، وضرب عبد المطلب القداح فخرجت على عبد الله ، فمازال يزيد عشرة حتى بلغت مائة ، فخرجت القداح على الإبل ، فقالت له قريش : « قد انتهى رضا ربك » ، ولكنه أبى إلا أن يعيد الضرب ثلاث مرات ، فخرجت القداح على الإبل فى المرات الثلاث ، فنحرت ، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع طير أو حيوان أو وحش .

وانصرف عبد المطلب مغتبطاً فرحاً بابنه ، ورأى أن يستكمل هذه الفرحة ، فقرر أن يزوجه من آمنة بنت وهب ، وهى سيدة عقائل العرب ، وجاء فى السيرة الحلبية أن عبد المطلب نزل وهو فى رحلة تجارة إلى بلاد اليمن على جد من اليهود ، فلما عرف الحد أنه من بنى هاشم نظر فى يديه ثم قال له : « أنا أشهد أن فى إحدى يديك ملكا ، وفى الأخرى نبوة ، وإنما تجد ذلك فى بنى زهرة » ، ونصحه إن أراد الزواج أن يتزوج من بنى زهرة . . وروى أن سودة بنت زهرة ابن كلاب كاهنة قريش قالت يوماً لبنى زهرة : « إن فيكم نذيرة أو تلد نذيراً ، فاعرضوا على بناتكم » ، فلما عرضت عليها آمنة قالت : « هذه النذيرة أو ستلد نذيراً » ، خطب عبد المطلب - آمنة لعبد الله وزوجها له ، فأقام معها فى بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب ، ثم انتقل وإياها إلى منازل أهله ، ولم يقيم معها طويلاً ، إذ خرج فى تجارة إلى الشام وكان قد تركها حاملاً ، وقضى فى

رحلته أشهراً ، وفي عودته مرض فتخلف عند أخواله بنى عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً ، ولما علم أبوه بعث بابنه الحارث ليعود به ، ولكنه كان قد مات .

مات عبد الله وزوجه آمنة حامل . . ورأت فيما يرى النائم من يهتف بها « إنك قد حملت بسيد هذا الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولى أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمداً » ، ورأت أيضاً فيما يرى النائم كأن نوراً قد خرج منها ، فأضاء ما بين المشرق والمغرب ، ورأت على ضوئه قصور بصرى بالشام . وفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ولد رسول الله .

ولد سيد الأمة في عام الفيل .
وعام الفيل هو العام الذى تحرك فيه أبرهة الأشرم لهدم بيت الله .
وحادث الفيل من أحداث مكة التى عاصرت عبد المطلب وكان له فيها موقف رجولة .

كان أبرهة الأشرم حاكم اليمن من قبل نجاشى الحبشة ، قد بنى بصنعاء كنيسة فخمة ضخمة هى القليس ، وأراد أن يحول إليها أنظار العرب بدلا من بيت الله فى مكة ، وكتب بذلك إلى النجاشى فقال : « إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمته حتى أصرف إليها حج العرب » .

ظل العرب على اتجاهمهم إلى بيت الله فى مكة ، واحتقروا . القليس ، وزادوا فى تحقيرها فكانوا يدنسونها متعمدين ، وانصرفوا عنها تماماً ، ورفضوا

الإذعان لأوامر أبرهة ، فأغضبه موقف الناس ، ورأى أن يسير بجيش ضخم إلى مكة ليهدم بيت الله فيها .

ونخرج الجيش ومعه الفيلة يتقدمها الفيل الأعظم الذى بعث به النجاشي إلى أبرهة واسمه محمود ، وهزم في طريقه كل من تعرض له من العرب واعترض طريقه (نفر من اليمن بقيادة ذى نفر ، ونفر من خثعم وشهران وناهس بقيادة نفيل بن حبيب ، ونفر من ثقيف بقيادة مسعود بن معتب) ، حتى بلغ مشارف مكة فبعث رجلا يدعى الأسود بن مقصود إلى مكة فساق أموال أهلها وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب ، ثم بعث رسولا يدعى حناطة الحميري إلى عبد المطلب يقول له « إن الملك يقول إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت » ، فقال له عبد المطلب : « والله ما نريد حربه ، ولا لنا بذلك طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم ، فإن لم يمنعه فهو بيته وحرمة » . والتقى عبد المطلب بأبرهة الذى أجله وأكرمه وسأله حاجته ، فطلب عبد المطلب أن يرد إليه إبله فقال له : « قد كنت أعجبتي حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتك ، أتكلمني عن مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لأهدمه لا تكلمني فيه » ، فقال عبد المطلب : « أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه » ، فرد أبرهة عليه إبله ، فعاد عبد المطلب إلى مكة ، وأخبر القوم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز بالجبال والشعاب ، ثم توجه إلى الكعبة ودعا ربه واستنصره على أبرهة وجيشه .

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليهم ومحالمهم أبداً محالك

إن يدخلوا البلد الحرام غداً فأمر مابدا لك
وتنهي أبرهة لدخول مكة ، فإذا بالفيلة تبرك كلها وجُهِت إلى ناحية مكة ، أما
إذا وجهت وجهة أخرى قامت مهولة مسرعة ، قال ابن إسحق : « فلما وجهوا
الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حيث قام إلى جانب الفيل ، ثم أخذ أذنه
فقال : ابرك محمود أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله
الحرام ، ثم ترك أذنه ، فبرك الفيل »
ثم تدخلت السماء .

وأرسل الله عليهم جماعات من الطير ترميهم بحجارة صغيرة لاتصيب أحداً
إلا هلك ، وعاد الجيش هارباً دون أن يبلغ مأربه ، وحفظ الله البيت العتيق ،
وأنزل نعمته على أعداء حرمه وبيته ، فكانوا يتساقطون وهم في طريق العودة ،
وأصيب أبرهة في جسده ، وما إن وصل صنعاء حتى مات .

وهكذا فشل أبرهة بكل جيشه وفيله وجبروته في الوصول إلى بيت الله ،
ذلك أن الله تعالى هو صاحب هذا البيت ، أوجده لحكمة تتصل بالحياة
والبشر ، ولا يمكن أن يتركه لينال منه بشر أو تصيبه قوة مها بلغت بمكره .
بيت الله اختاره الله لنفسه وجعله كعبة للناس يحجون إليه من كل فجاج
الأرض ، فقد أوصى الله تعالى إلى إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج إليه « إنما
عليك الأذان وعلينا البلاغ » ، وأقبل الناس على البيت طائعين يلبون النداء ،
ويقبلون بقلوب خاشعة ، وعيون دامعة ، يتوبون إليه ويستغفرونه ، ويرجون
رحمته ، ويخافون عذابه ، يغسلون ذنوبهم ، ويمحون سيئاتهم ، ويعودون
أطهاراً أبراراً كما ولدتهم أمهاتهم .

بيت الله أوجده الله تبارك وتعالى قبل الخلق . فأصبح مهوى الأفتدة ، وقبله الأنظار ، وتهافت القبائل على الإقامة حوله ، وتسابق الناس إلى سكنى جواره وفي رحابه ، وصار خدام هذا البيت أكثر الناس مقاماً وأعزهم شأناً وأرفعهم منزلة .

بيت الله هذا جاءه أبرهة ليهدمه وكما قال عبد المطلب : « إن للبيت رباً يحميه » ، فقد صد الله عن البيت الضر والهدم ، حين أريد به الضر والهدم ، وكان أن حفظ الله بيته وأنزل نقمته على أعداء حرمه ، فعرف العرب لقريش مكانتها ، فقالوا إنهم أهل الله وجيران بيته ، ومن ثم فقد ازدادت مكانة عبد المطلب رفعة عند قومه ، قال ابن إسحاق « فلما رد الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النعمة ، أعظمت العرب قريشاً ، وقالوا هم أهل الله ، قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم » .

بيت الله هذا أغرى به نفر من هُنَيل تبعاً لملك اليمن ، وقالوا له : « أيها الملك ألا ندلك على بيت مال دائر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ، إنه بيت بمكة يعبداه أهله ويصلون عنده » ، فاستشار تبع رجاله ، فقالوا له : « أيها الملك ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، مانعهم بيتاً لله اتخذوه في الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت مادعوك إليه لنهلكن وليلكن من معك جميعاً » ، ونصحوه بزيارة البيت وتعظيمه والطواف به وتكريمه ، فقبل نصيحهم ، وطاف ونحر ، وحلق رأسه ، وأطعم الناس ، ثم كسا البيت .

لقد كانت حماية البيت إذن منوطة بالله تبارك وتعالى ، والله حافظ على مبنى

البيت ، ومنع أبرهة من هدمه ، في ذات العام الذى ولد فيه نبي الهدى خاتم
الأنبياء وسيد المرسلين ، ليكون بقاء البيت وجوده إيداناً بمولده عليه الصلاة
والسلام ، وليكون حدث الفيل إرهاباً لمقدم حدث جليل ، ونقله هائلة
للإنسانية ، ونحوها خطيراً للتاريخ البشرى ، ومرحلة هامة ذات شأن في تاريخ
الحياة ذاتها ، فقد شاءت إرادة الله أن يحمل محمد بن عبد الله رسالة الحق إلى
خلقه ، متمماً بها نعمته . وفضله على الخلق كله ، محتتماً بها رسالات السماء إلى
أهل الأرض .

٣- وبنغ نجم أحمد

في عام الفيل بنغ نجم أحمد ، وولد رسول الله ﷺ .
وحدث بعد ولادته عليه السلام ، أن ظفر سيف بن ذى يزن بالحبيشة ،
وخلص له ملك اليمن ، فسارت إليه وفود العرب وأشرفها للتهنئة ، وكان ضمن
هذه الوفود وفد لقريش عليه عبد المطلب ، فلما مثل الوفد بين يدي سيف ،
عرف عبد المطلب فأدناه منه وأكرمه .

ودعا سيف عبد المطلب وحده في خلوة وقال له : « يا عبد المطلب إني
مفوض إليك من سر. علمي مالوكان غيرك لم أبح له ، ولكن رأيتك معدنه
وأطلعتك عليه ، فليكن عندك ، مطوياً حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ فيه
أمره ، إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اخترناه لأنفسنا
واحتجبتاه دون غيره ، خبراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة
الوفاء للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة » ، فتملكت الدهشة
عبد المطلب ، وسأل : « أيها الملك فثلك من سرّ وبرّ ، فما هو فداك أهل
الوبر ؟ » ، فقال سيف : « إذا ولد بتهامة غلام بن كفيه شامة ، كانت له
الإمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة » ، فقال عبد المطلب : « آيت
اللعن ، لقد أتيت بنجر ما أتى بمثله وافد ، فلولا هبة الملك وإجلاله وإعظامه

لسألته من بشارته إياى ماأزاد به سرورا « فقال سيف : « هذا حينه الذى يولد فيه أو قد ولد ، اسمه أحمد يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، والله باعته جهاراً ، وجاعل منا له أنصاراً ، يعز بهم أوليائه ، ويدل بهم أعداءه ، يضرب بهم الناس عن عرض ، ويستفتح بهم كرائم الأرض ، تكسر الأوثان وتحمد النيران ، ويعبد الرحمن ويدحر الشيطان ، قوله فصل وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله » ، فسأل عبد المطلب : « أيها الملك عز جدك وعلا عقبك وطاب ملكك وطال عمرك ، فهل الملك سارى بإفصاح ، فقد أوضح بعد الإيضاح ؟ » ، فقال ابن ذى يزن : « والبيت ذى الحجب ، والعلامات على النصب ، إنك يا عبد المطلب لجده غير الكذب » ، فخرّ عبد المطلب لدى سماعه ذلك ساجداً ، فقال له سيف « ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست بشيء مما ذكرت لك » ، فقال : نعم أيها الملك ، كان لى ابن وكنت به معجباً رقيقاً ورقيقاً ، فزوجته كريمة من كرائم قومي آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، فأتت بغلام سميته محمداً ، مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه ، بين كتفيه شامة ، وفيه كل ما ذكرت من علامة » فنصحه سيف قائلاً : « احتفظ بابنك واحذر عليه من اليهود ، فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سيلاً ، فاطو ما ذكرته دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن يداخلهم النفاسة من أن تكون لك الرئاسة ، فيغيثون له الغوائل ، وينصبون له الحبال ، وهم فاعلون وأبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن الموت يحتاجنى قبل مبعثه ، لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير يثرى دار ملكه ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرى استحكام أمره

وأهل نصرته وموضع قبره » .

كانت هناك بشارات كثيرة تشير إلى أن نبياً جديداً سيأتى إلى العالم يصلح أمر الناس ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويهديهم إلى الخير والصلاح ، ويدعوهم إلى عبادة الله وتقواه . . وردت البشارات في الكتب السماوية ، وعرف بها اليهود والمسيحيون ، وأيقنوا أن النبي المنتظر اسمه محمد ، وعرفوا صفاته التي وردت في التوراة والإنجيل .

روى أن عبد المطلب رأى في منامه قبل مولد الرسول ﷺ ، كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض وطرف في الشرق وطرف في الغرب ، ثم عادت كأنها شجرة وعلى كل ورقة منها نور ، وأهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها ، فلما قصّ رؤياه على أهل العلم ، فسروها له بمولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض .

ولد رسول الله .

وكانت كل الأحداث تشير إلى أنه نبي الأمة .

مات أبوه عبد الله وهو مازال جنيناً في بطن أمه .

وماتت أمه وهو في السادسة من عمره ، وهى في طريق عودتها من زيارة لبنى النجار بالمدينة ، ودفنت بالأبواء (موقع بين مكة والمدينة سمي بذلك لأن السيول كانت تتبوأه أى تحل فيه) .

وعاش مع جده عبد المطلب فلما بلغ ثمانى سنين مات جده .

ولم يبق له إلا عمه أبو طالب شقيق أبيه أبا وأماً ، وفي كنفه عاش الرسول ،

وصحبه في رحلة جهاده وكفاحه ورسالته ، وكان أبو طالب أميناً على ابن أخيه وهو صغير ، فأولاه عنايته ورعايته وحبه وعطفه وبره وتقديره ، وكان أميناً عليه وهو كبير يواجه مسئوليات الدعوة ، فأعطاه الأمان والحماية ، ووقف في وجه قریش كلها يدفع عنه ضرهم ويصد عنه عداؤهم ، ويعطيه الثقة ، وبه الأمان ، ويمده بالقوة .

ولقد كانت كفالة جده ثم عمه له ﷺ بعد موت أبيه وأمه مذكورة في الكتب القديمة من علامات نبوته ، كما كان كثيرون من العارفين بالعلم من أصحاب الأديرة يعرفون ذلك أيضاً ، فقد حدث أن صحب أبو طالب ابن أخيه في تجارة ، ونزلا معاً براهب صاحب دير ، فقال له الراهب : « ماهذا الغلام منك ؟ » فقال أبو طالب : « ابني » ، فقال الراهب : « ماهو بابنك ، وماينبغي أن يكون له أب حي » فتعجب أبو طالب وسأله : « ولم ؟ » ، قال الراهب : « لأن وجهه وجه نبي ، وعينه عين نبي ، وهو النبي الذي يبعث لهذه الأمة » .

وفي بصرى التقى أبو طالب والراهب بحيرا الذي رأى وهو بصومعته رسول الله في الركب وغمامة تظله من بين القوم ، ثم لما نزلوا في ظل شجرة ، رأى الغمامة قد أظلت الشجرة ، التي مالت أغصانها على رسول الله حين استظل تحتها ، سأل بحيرا أباطالب : « ماهذا الغلام منك ؟ » ، فقال أبو طالب : « ابني » ، قال : « ماهو ابنك ، وماينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً » ، فقال : « هو ابن أخي » ، فسأل : « لما فعل أبوه ؟ » ، قال : « مات وأمه حبلى به » ، قال : « صدقت ، ومافعلت أمه ؟ » قال : « توفيت » ، قال :

« صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلاده ، واحذر عليه اليهود ، فوالله لو رأوه وعرفوا منه ماعرفت لتبغينه شرًا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم » .
ولقد تحدثت كتب السيرة بما رواه أحبار اليهود والرهبان من النصرى والكهان من العرب عن رسول الله قبل ولادته لما تقارب زمانه ، استخلاصاً مما وجدوه في كتبهم من صفته وعلاماته وصفة زمانه وما يدعوا إليه .

ومثال ذلك ماروى عن سلمة بن سلامة وهو من أصحاب بدر قال :
« كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فسأله القوم : أو ترى هذا كائناً ، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ، يحزون بأعمالهم ، قال : نعم والذى يحلف به ، فقالوا : ويحك ومآية ذلك ، قال : نبى من نحو هذه البلاد (وأشار بيده إلى مكة) » .

ومثال ثان فقد روى عمرو بن عنبسة السلمى : « رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية فلقيت رجلاً من أهل الكتاب من أهل تيماء (مدينة بين المدينة والشام) فقلت إني امرؤ ممن يعبد الحجارة . . فدلنى على خير من هذا ، قال يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ، ويدعو إلى غيرها ، فإذا رأيت ذلك فاتبعه ، فإنه يأتى بأفضل دين ، فلم يكن لى همة منذ قال ذلك إلا مكة » .

وروى شيخ من بنى قريظة أن رجلاً من يهود أهل الشام يدعى ابن الهبيان قدم إليهم قبل الإسلام بسنين فحل بين أظهرهم ، فلما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت ، قال مخاطباً يهود المدينة : « يامعشر يهود ، ماترينه أخرجنى من أهل الخمر إلى أرض البؤس والجوع ؟ » ، فقالوا له : « أنت أعلم » ، فقال : « فإنما قدمت هذه الأرض أتوكف (أنتظر) خروج نبى قد أظل زمانه ، وهذه البلد

مهاجره ، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه » .

وحدث أمية بن أبي الصلت، أبا سفيان فقال له : « إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلدنا ، فكنت أظن أني هو ، ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف » .

وفي سوق بصرى سمع طلحة بن عبد الله راهباً يحدث الناس عن نبي اسمه أحمد ، ويقول هذا شهره الذي يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ، مخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى نخلة وحره وسياح .

ونكتفي بهذا القدر ومن أراد المزيد ففي كتب السيرة ما يغني ويفيد .
عاش رسول الله في حياة أمه وقبل وفاتها فترة من حياته وهو صغير في بني سعد ، حيث كانت ترضعه وتقوم على تنشئته حليمة السعدية ، التي أخذته وهي تعرف أنه يتيم فقير ، فقد قالت لزوجها : « والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذنه » ، فوافقها وقال : « لا بأس عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » .

عاش رسول الله معها في بني سعد حتى بلغ الخامسة ، وبدأت لها خلال مدة حياته معها أمور تشير إلى أنه سيكون له شأن وأى شأن . . أمور تتصل بها وبحياتها كهذا الخير الوفير العميم الذي حلّ بيتها ، وقالت في ذلك : « لما دخلت به ﷺ لم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته » . . وأمور تتصل به ﷺ في سلوكه وتكوينه ونشأته وقالت في ذلك : « كان يشب شباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً (شديداً) » ، وقالت « لم يبق منزل من منازل بني سعد إلا شممنا منه ريح المسك ، وألقيت محبته

ﷺ واعتقاد بركته في قلوب الناس ، حتى إن أحدهم كان إذا نزل به أذى في جسده أخذ كفه ﷺ فيضعها على موضع الأذى فيبأذن الله تعالى سريعا ، وكذلك إذا اعتل لهم بغير أو شاة .

وعن ابن عباس رضي الله عنه ، كان أول كلام تكلم به ﷺ حين فطمته حليلة رضي الله عنها ، الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ، وفي رواية أخرى : « إن أول كلام تكلم به ﷺ وهو عند حليلة لإله الله ، قدوسا قدوسا ، نامت العيون ، والرحمن ، لاتأخذه سنة ولا نوم » .

ثم أمور تأتى من السماء بأوامر منها تعدّه وتجهزه للمهمة الكبرى التي سيتولاها بعد حين ، من هذه الأمور هذا الحدث الذي روته كتب السيرة من شق بطنه عليه السلام ، قال ابن اسحاق : « حدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : « يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ؟ » ، قال : « نعم أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء قصور الشام ، واسترضعت في بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا ، إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض ، بطست من ذهب مملوءة ثلجا ، ثم أخذانى فشقا بطنى واستخرجا قلبى فشقا ، فاستخرجا منه علقة سوداء ، فطرحاها ثم غسلا قلبى ويطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، فقال زنه بمائة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال زنه بألف من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، فقال دعه عنك فوالله لو وزنته بأتمته لوزنها » .

وجاء في السيرة الحلبية أن رسول الله ﷺ قال : « كنت مسترضعاً في بني سعد ، فبينما أنا ذات يوم متبذراً (منفرداً) من أهلي في بطن واد مع أتراب لي ، إذ أتى رهط ثلاثة معهم طست ذهب ملآن ثلجاً ، فأخذوني من بين أصحابي ، فخرج أصحابي هرباً حتى أتوا على شفير الوادي ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : مارأيكم ؟ فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مرتضع فينا ، يتيم ليس له أب ، فما يرد عليكم أن يفيدكم قتله ؟ وماذا تصيرون من ذلك ؟ فإن كنتم لابد قاتلوه فاختراروا منا من شتم فليأتكم مكانه ، فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحبون جواباً ، انطلقوا هرباً مسرعين إلى الحى يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم إلى فأضجني على الأرض إضجاعاً لطيفاً ، ثم شق بطنى مابين مفرق صدرى إلى منتهى عانتي وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك مساً ، واستخرج أحشاء بطنى ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ثم أعادها مكانها ، ثم قال الثاني منهم لصاحبه تنح عنه ، فنحاه عني ، ثم أدخل يده في جوفى ، فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه ، فصدعه ، ثم أخرج منه مضغة سوداء ثم رمى بها ، وإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه فختم به قلبي فامتلاً نوراً ، وإن السكينة سرت فيه ، ثم أعاده مكانه فوجدت برد الختم في قلبي دهرأ ، ثم قال الثالث لصاحبه تنح عنه ، فنحاه عني ، فأمر يده مابين مفرق صدرى إلى منتهى عانتي ، فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى ، وختم عليه ثم ضموني إلى صدرهم ، وقبلوا رأسي ومابين عيني ، ثم قالوا يا حبيب الله لم ترع ، إنك لو تدرى مايراد بك من الخير لقرت عيناك .
وثمة أمر هام .

الطريق إلى برب

فإن اسم محمد لم يكن معروفاً لدى العرب ، ولم يكن متداولاً في الجاهلية . فلما سارت الروايات والأقوال بأن نبياً منتظراً قد آن أوانه وأن اسمه محمداً ، أصبحت النبوة أمل كثيرين ومرتجاهم ، فكل تمنى أن تكون النبوة في بيته ومن نسله وذريته ، ولهذا بدأ البعض يطلق اسم محمد على من يرزق به من أبناء ، وقال صاحب الروض الأنف : « لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله ﷺ إلا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد ﷺ وبقرب زمانه وأنه يبعث من الحجاز أن يكون ولداً لهم ، وهم محمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن الجلاح بن الحريش ، ومحمد بن ربيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك وكان عنده من علم الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبي وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً ، فنذران ولد له ذكر أن يسميه محمداً ، وفعلوا ذلك » .

وسئل محمد بن عدى « كيف سماك أبوك في الجاهلية محمداً ؟ » ، فقال : « سألت أبي فقال : خرجت رابع أربعة من تميم نريد الشام ، فتنزلنا عند غدير عند دير ، فأشرف علينا الديراfi وقال : إن هذه للغة قوم ماهي لغة أهل هذه البلاد ، فقلنا له : نحن قوم من مضر ، فقال من أي المضايير ؟ ، فقلنا : من خندف ، فقال لنا : إن الله سيبعث فيكم نبياً وشيكاً فسارعوا إليه ، وخذوا حظكم تترشدوا فإنه خاتم النبيين ، فقلنا له : ما اسمه ؟ قال : محمد ، ثم دخل ديره ، فوالله ما بقي أحد منا إلا زرع قوله في قلبه ، فأضمر كل واحد منا إن رزقه الله غلاماً سماه محمداً ، رغبة فيما قاله ، قال : فلما انصرفنا ولد لكل واحد منا غلام فسماه محمداً رجاء أن يكون هو » .

وروى أن سفيان بن مجاشع نزل على حيّ من تميم فوجدهم مجتمعين على كاهنتهم وهي تقول : « العزيز من والاه ، والدليل من خالاه » ، فسأها سفيان : « من تذكّرين لله أبوك ؟ » ، فأجابته : « صاحب هدى وعلم وحرب وسلم » ، فقال لها : « من هو الله أبوك ؟ » ، فقالت : « نبي مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث للأحمر والأسود اسمه محمد » ، فقال : « أعري أم عجمي ؟ » ، فقالت « أما والسماء ذات العنان والشجر ذوات الأفنان ، إنه لمن معدّ بن عدنان ، حسبك فقد أكثرت ياسفيان » ، فأمسك سفيان عن سؤالها ، ومضى إلى أهله ، وكانت امرأته حاملا فولدت له ولداً فسماه محمداً ، رجاء منه أن يكون هو النبي الموصوف .

لما حملت السيدة آمنة برسول الله ﷺ أمرت على حد قول أبي جعفر محمد ابن علي بن الحسين أن تسميه محمداً .

وقد أطلق عبد المطلب هذا الاسم على وليده حين أخبر بولادته ، عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « لما ولد رسول الله ﷺ عى عنه جده بكبش وسماه محمداً ، فقيل له ياأباالحارث ، ما حملك على أن تسميه محمداً وليس من أسماء آبائك ولاقومك ؟ قال : أردت أن يحمد الله في السماء ويحمده الناس في الأرض » .

لقد اختار الحق هذا الاسم لرسوله وخاتم أنبيائه ، فحفظ للاسم رونقه وشرفه ، فلما سمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك ، حمى الله تبارك وتعالى هؤلاء أن يدعى أحد منهم النبوة أو يدعيها أحد له ، حتى تحققت له ﷺ

٤ - خديجة . . . الطاهرة

كانت السماء تعد رسول الله ليقوم برسائله التي اصطفاه من أجلها الله تبارك وتعالى ، وكان الله تعالى في سابق علمه يعلم أن الرسول سيجد معارضة من قومه ، وهم أصحاب المكانة والسيادة والسلطة والجاه في مكة ، التي تنطلق منها الدعوة ، ولهذا فإن الحق تعالى أعد له وسائل الدفع والمقاومة والحماية ، والمناخ اللازم المناسب لاستمرار الدعوة للدين الجديد .

وكان رسول الله وهو يعلن دعوته ويسعى سعيه بين الناس للإيمان به وبدعوته ، في حاجة مادية إلى نوعين من الحماية ، كان في حاجة إلى حماية بشرية تحميه من الكفار الذين أخذوا على عاتقهم مقاومة الدعوة والوقوف ضدها دفاعاً عن دين الآباء والأجداد ، ودفاعاً عن السيادة والسلطة التي كانت لهم ، ودفاعاً عن حقوقهم التي وهبها لهم مجتمعهم المكّي ، وقد تولى هذه الحماية عمه أبو طالب فكان يصد عنه أذى الكفار وأذى المشركين .

وكان الرسول في حاجة أيضاً إلى حماية له داخل بيته ، وهو يتلقى الوحي ويعد خطط تنفيذ ما يؤمر به ، كما كان في حاجة إلى الراحة النفسية في لحظات خلوته داخل بيته حيث يجب أن يتوافر له الهدوء والاستقرار ، ولقد هياً له الحق تبارك وتعالى الحماية والنصرة والمؤازرة داخل بيته ، مصدراً إيمانياً في البيت كان

متمثلاً في زوجه خديجة بنت خويلد .

وخديجة كانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا وأحسنهن جمالا ، وهي بنت خويلد بن أسعد بن عبد العزى بن قصي ، فهي إذن ترتبط في نسبها بنسب رسول الله ﷺ ، عن نفيسة بنت منية قالت : « كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة ، وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهم مالا وأحسنهن جمالا ، وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة ، يقال لها سيدة قريش ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر له ذلك ، وقد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل » .

خرج رسول الله في تجارة لخديجة إلى الشام ، فعندما بلغ عليه السلام خمساً وعشرين سنة قال له عمه أبو طالب : « يابن أخي ، أنا رجل لآمال لي وقد اشتد الزمان وألحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ، هذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجلا من قومك في عيراتها ، فيتجرون لها في مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك ، لما يبلغها من طهارتك ، وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا تجد لك من ذلك بدءاً » ، فقال له رسول الله : « لعلها ترسل إليّ في ذلك » ، وصدقت رؤيته عليه السلام ، فقد بعثت إليه خديجة وقالت : « إني دعاني إلى البعثة إليك مبالغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك » ، فلما بلغ ذلك أبا طالب قال له : « إن هذا لرزق ساقه الله إليك » .

خرج رسول الله ﷺ في تجارة السيدة خديجة ومعه غلامها ميسرة ، فلما بلغا سوق بصرى نزل رسول الله في ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا ، فسأل الراهب ميسرة - وكان يعرفه : « من هذا الذي نزل تحت الشجرة ؟ » ، فأجابه : « رجل من قريش من أهل الحرم » ، فقال له : « مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي » ، ثم سأله : « أفي عينيه حمرة » ، قال : « نعم » ، لاتفارقه » ، فقال الراهب : « هوهو ، وهو آخر الأنبياء ، وياليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج » ، وفي رواية أخرى أن الراهب تقدم من رسول الله وقبّل رأسه وقدمه وقال : « آمنت بك وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة » ، ثم قال : « يا محمد ، قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة فأوضح لي عن كنفك » ، فأوضح له فرأى خاتم النبوة فقال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، النبي الأمي الذي بشر به عيسى بن مريم ، فإنه قال : لا ينزل بعدى تحت هذه الشجرة إلا النبي الأمي الهاشمي العربي صاحب الخوض والشفاعة وصاحب لواء الحمد » .

وانتهى موسم التجارة ، وعاد رسول الله ومعه ميسرة إلى مكة بعد أن حقق ربحاً غير عادي ، قال عنه ميسرة مخاطباً رسول الله : « يا محمد ، انجرتنا لخديجة لما ربحتنا قط ربحاً أكثر من هذا الريح على وجهك »^(١) .

وثمة أمر في غاية الأهمية لفت نظر ميسرة خلال العودة ، فقد رأى ملكين يظلان رسول الله ويحميانه من الشمس ، وقد اشتد الحر ، ومال ميسرة إلى

(١) في الأصل « انجرتنا لخديجة أربعين سنة » ونحن نرى أن هناك خطأ في تقدير المدة لأن المعروف أن رسول الله تزوج منها وهي في الأربعين والرحلة كانت قبل الزواج .

الرسول وألقى الله تعالى في قلبه محبته ، فلما التقى بسيدته خديجة روى لها مشاهدته خلال السفر ، وأعاد على مسامعها ما قاله الراهب نسطورا ، فحدثت بذلك كله ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان نصرانياً فقال لها : « إن كان هذا حقاً ياخديجة ، إن محمداً نبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي منتظر هذا زمانه » .

إن الربح المادى الذى حققه رسول الله في تجارته لخديجة كان عاملاً مؤثراً في اتجاه عواطفها إليه عليه السلام ، هذا فوق أن عاملاً آخر كان له أثره أيضاً في تعاطفها ، هذا العامل هو أمانته وخلقه وصدقه ووقاؤه ، فقد وجدت فيه الشاب التقى النقى الورع الطاهر ، ولقد كان لهذا العامل أثر بعيد المدى في نفسية خديجة ، ولعجب فالحق هو عماد الشخصية ، وإن السيدة خديجة حين أشارت إلى أخلاقيات الرسول وسلوكياته في حديثها إليه في أمر الخروج بالتجارة ، وقد أشرنا إليه ، كانت تؤكد حقيقة تميز بها رسول الله على أقرانه واعترف له بها قومه حتى إنهم أطلقوا عليه اسم الأمين ولقبوه به .

ولاشك في أن رسول الله ﷺ كان على خلق عظيم ، فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان ، وقد أكدده الحق تبارك وتعالى حين خاطب نبيه : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، وأكدده الرسول ذاته في قوله : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، وهذا الخلق هو الذى أهله عليه السلام للتفوق والتميز ، لأنه كان يعنى حب الفضيلة والقيام بحقها ، وحسن العشرة ، ولطف المودة ، وصلة الرحم ، وحب الناس ، والتواضع والأناة ، والحياء ، والإعراض عن الجاهلية ، وترك المهاترات ، وتهذيب النفس ، وتربية الوجدان ، والتآلف مع الناس ، والتقرب

إليهم ، وكان مسلك رسول الله هو مسلك الحريص المتحفظ في حذر
مماحواليه ، ولهذا اصطفى خللانه من صفوة رجال شهد لهم الجميع بالخلق
الحميد والسجايا الطاهرة والطباع الرفيعة والسلوك العفيف ، ومن هذا المعنى لم
يكن عليه السلام يميل إلى ماكان يفعله فُسَّاقُ قومه ، وقيل إنه حضر سحرهم
ولوهم مرتين فقط في حياته ، إلا أن الحق ألقى عليه النوم في المرتين حتى لا يرى
ولا يسمع مايمس الخلق الرفيع التزيه .

ولقد تحدث ولیم مویر عن خلق الرسول وعما اتصف به من صفات فقال :
« تجمع كل مراجعنا وأسانيدنا فيما ينسب إلى محمد في شبابه من سيرة التواضع
والاحتشام وطهارة الخلق على صورة نادرة الوجود بين المكين » ، واستطرد
قائلا : « وبما وهب له من عقل راجح وذوق رقيق وحرص دقيق وعمق في
التأمل ، عاش منطوياً على نفسه طويلاً متخذاً من تأملاته العقلية دون ريب
شاغلاً لوقت الفراغ الذي كان يقتله غيره من ذوى الطابع الخسيس باللهو
السمج والفجور الماجن والسلوك الخليع ، ولقد وقع خلق ذلك الشاب القويم
ومسلكه الورع العف موقع الحمد والثناء من قلوب قومه جميعاً ، وإيجاعهم
عن طيب خاطر نال لقب الصادق الأمين » .

وكان لقب الأمين تعبيراً صادقاً عن خلق رسول الله ﷺ ، ويعت
الاستقرار والراحة النفسية عند الناس ، إذا ماتعاملوا معه عليه السلام أو ارتبطوا
به ، كما حدث يوم أن شرعت قريش في إعادة بناء الكعبة ، وكان الرسول
يومها في الخامسة والثلاثين ، فقد طفئ سبيل عظيم على الكعبة فصدمع
جدرانها ، وكانت امرأة تقوم بتبخيرها فطارت شرارة إلى كسوتها فأحرقت

جدرانها ، وكانت الكعبة عرضة لأن يسرق منها ما تحتويه من نفائس لأنها لم تكن ذات سقف ، ولهذا قررت قريش هدمها وإعادة بنائها ، وشاركت كل القبائل في هذا العمل العظيم ، فقسمت المنطقة إلى مساحات لكل قبيلة مساحة خاصة بها ، تجمع فيها الحجارة اللازمة لإقامة البنيان .

ولما كان البناء يحتاج إلى مال للإنفاق ، فقد تطوع القوم كل على قدر سعته ، وكان المال كله نفقة طيبة ليس فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس ، وكان أبو وهب عمرو بن عابد (خال عبد الله أبي رسول الله وكان شريفاً في قومه) قد طلب ذلك من القوم في حديث لهم قال فيه . « يامعشر قريش ، لاتدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً ، لاتجعلوا في نفقة هذا البيت شيئاً أصبتموه غصباً ولا قطعتم فيه رحماً ، ولا انتهكتم فيه حرمة أو ذمة بينكم وبين أحد من الناس .

وحدث أن رمى البحر بسفينة قادمة من مصر ، يملكها رجل اسمه باقوم فحطّمها عند جدّة ، وكان باقوم يعمل بالنجارة ، فسعى الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إلى هناك ، وابتاعوا السفينة ، ثم صحبوه إلى مكة ليسهم في بناء الكعبة .

واقسمت قريش جوانب البيت ، وعملت كل قبيلة في جانبها تهدمه ثم تعيد بناءه ، حتى إذا مابلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، أرادت كل قبيلة أن تنال شرف وضعه في مكانه ، واختلفت القوم واختصموا ، وأعدوا أنفسهم للمحاربة والقتال ، إلا أن أبا أمية بن المغيرة - وكان أسنّ الناس شريفاً مطاعاً - تدخل بين القوم ، وعرض رأياً قبلوه جميعاً ، قال : « اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا » ، والتقت الأنظار بالباب ليروا من

أول داخل ، وكان محمد بن عبد الله ، فاستبشروا خيراً وسعدوا به وقالوا : « هذا الأمين رضيينا حكمه » ، وعرضوا عليه الأمر فقال لهم : « هلموا إليّ بثوب » ، فنشره ووضع يديه الكرمتين الحجر في الثوب ، وطلب منهم « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب » ، فحملوه جميعاً إلى موضعه فتناوله بيده ووضع موضعه ، وكان هذا الموقف فرصة أوجدتها الظروف لتؤكد مدى اقتناع القوم بمحمد خلقاً وكالاً ، ولتجعل ارتباطهم به أشد ، وثقتهم فيه أقوى ، واعتمادهم عليه مرغوباً ، وامتنانهم لأحكامه أمراً مقبولاً محبوباً ، وكانت أخلاق الرسول وصفاته هي الخلفية التي دفعت بقريش إلى قبول رأيه وتنفيذه .

وكذلك كانت أخلاقه عليه السلام وصفاته حافزاً للسيدة خديجة لتفكر في الزواج منه ، وفاضت مشاعرها وعواطفها وأحاسيسها بهذه الرغبة ، فقد وجدت فيه الشاب التقى النقي الطاهر الزكي الأمين الصادق ، زين شباب قريش ، من لاحت في جبينه سمات النبيل ، وتجمعت فيه خصال الكمال ، وظهرت عليه أمارات السيادة والقيادة والوفاء والنجابة .

وبعثت خديجة إليه نفيسة بنت منية سراً تعرض عليه الزواج ، فلما التقت به سألته : « يا محمد ما يمنعك من أن تتزوج ؟ » فأجابها : « ما يبدى ما أتزوج به » ، فقالت : « فإن كفيئك ذلك ، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف ألا تجيب ؟ » قال : « فمن ؟ » ، قالت : « خديجة » ، قال : « وكيف لى ذلك » ، قالت : « على وأنا أفعل » ، وعادت نفيسة إلى سيدتها وأخبرتها بموافقته .

وتزوجت خديجة من رسول الله .

وبدأت معه رحلة كفاح ، كانت يجانبه تشجعه وتؤيده وتخفف عنه ،

كانت الزوجة التي أعطته كل حنانها وحبها ، فخفف ذلك ماكان يلقاه من الكفار ، وعاشت معه وبجانبه تهيئ له الأمن والأمان والاستقرار والهدوء والسكينة ، وكانت نعم الرفيق ، ساعده الأيمن وعضده في الدعوة والثبات والجهاد ، ولقد قدّر رسول الله دورها وأثرها ، فلم يتزوج بغيرها ، بل ظلت زوجته الوحيدة طوال حياتها ، فلما ماتت أعزها بعد مماتها ، حتى بلغ من حبه لها أن أكرم صديقاتها ومن يعز عليها من الرجال والنساء ، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبي كان إذا ذبح شاة قال : « أرسلوها إلى أصدقاء خديجة » ، وقال : « إني لأحب حبيبها » ولقد قدرت السماء أيضاً دورها وأثرها ، فقد جاءها جبريل بالسلام من ربها من فوق سبع سموات ، وروى أن جبريل أتى رسول الله وقال له : « أقرئ خديجة السلام من ربها » ، فقال لها الرسول : « ياخديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك » ، فقالت : « الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » ، وقد بشرها الحق جل جلاله على لسان نبيه ﷺ بيت في الجنة من قصب (لؤلؤ مجوف) ، لاصخب فيه ولا نصب (تعب) .

عاش معها رسول الله خمس عشرة سنة قبل البعثة ، وعشراً بعدها ، فكانت خير مثل للمرأة الكاملة .

وفي فترة معاشرته عليه السلام لها وعندما بلغ أربعين سنة ، بعثه الله تبارك وتعالى رحمة للعالمين ، وبشيراً للناس كافة ونذيراً ، فقال أنس رضى الله عنه : « إن رسول الله ﷺ بعث على رأس الأربعين » ، وقال ابن إسحاق : « ذكر الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أنها حدثته : إن أول

مأبدئ به رسول الله ﷺ من النبوة الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح » ، وفي رواية أخرى : « كان لا يرى شيئا في المنام إلا كان » ، وهذا يعني أن رؤيا النبي ﷺ كلها صادقة وإن كانت شاقة ، وكانت تأنيسا له عليه السلام .

وعن علقمة بن قيس : « أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ نفوسهم ثم ينزل الوحي ، لأن رؤيا الأنبياء وحى وصدق وحق ، لا أضغاث أحلام ولا تخيل من الشيطان ، إذ لا سبيل له عليهم ، لأن قلوبهم نورانية ، فإيرونه في المنام له حكم اليقظة ، فجميع ما ينطبع في عالم مثاهم لا يكون إلا حقا ، ومن ثم جاء : « نحن معاشر الأنبياء تنام عيوننا ولا تنام قلوبنا » .

وعن السيدة عائشة قالت : « وحب الله إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده » ، فكأن الله قد حجب إلى رسوله الخلوة التي يكون بها فراغ القلب عن أشغال الدنيا فيصفو وتشرق عليه أنوار المعرفة ، ويكون بها أيضا الانقطاع عن الخلق لاسما إن كانوا على باطل .

واتخذ رسول الله ﷺ غارا بأعلى جبل حراء للخلوة والتأمل والتفكير فيما حوله بعيدا عن صخب الحياة وضجيج الناس ، وعن عبيد بن عمير قال : « كان رسول الله ﷺ يجاور من غار حراء في كل سنة شهرا » .

وجاء عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : « إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد . يا محمد ، وأسمع صوتا ، وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر ، وأخشى أن يكون بي جنون » ، فقالت له : « كلا يا بن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم وتصدق

الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضعيف .

وكانت السيدة خديجة في هذه الفترة تطمئنه وتشجعه وتعينه .

وفي حراء نزل الوحي على الرسول وجاءه جبريل فقال له : أبشرياً محمد ، أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة » ، قال رسول الله ﷺ : « فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : « اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، قال : ففتني به (أى ضمني وعصرتني) حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما اقرأ ، ففتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما اقرأ ؟ ، ففتني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قال : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) ، قال : فقرأتها ثم انتهت فانصرف عني وهبت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً ، قال : فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال : فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك » .

وعاد رسول الله إلى بيته فحدث خديجة بالذي رآه ، فهدأت من روعه وقالت : « أبشري يا بن عمي واثبت ، فوالذي نفسي بيده إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » ، ثم أسرع إلى ورقة بن نوفل لتخبره بما أخبرته به ولتسمع

رأيه فقال لها : « قدوس قدوس ، والذي نفسى بيده لئن كنت صادقة ياخديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى الذي هو جبريل ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولى له يثبت » ، فعادت الزوجة الوفية إلى زوجها ونقلت إليه رأى ورقة .

والتقى ورقة برسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة فسأله أن يقصّ عليه ما رأى وسمع ، فلما أخبره الرسول عليه السلام قال له : « والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبه وتؤذينه ولتقاتلنه ولتخرجن ، ولئن أنا أدركت هذا اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » . قال الحافظ بن حجر : « هذا الذى وقع له ﷺ فى ابتداء الوحي من خصائصه إذ لم ينقل عن أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه جرى له عند ابتداء الوحي مثل ذلك » .

ولقد أرادت الزوجة الوفية أن تتأكد مما رواه لها زوجها رسول الله ، لاشكاً فيما رواه ولكن تثبيتاً للأمر فى نفسها ، فإذا ثبت انعكس ذلك على تأييدها وتشجيعها فقالت للرسول : « أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك » ، فوعدها ، فلما جاءه جبريل عليه السلام قال الرسول : « ياخديجة ، هذا جبريل قد جاءنى » ، فقالت : « قم يا بن عم فاجلس على فخدى اليسرى » ، ففعل ، فسألته : « هل تراه ؟ » ، فلما أجابها بالإيجاب قالت : « فتحول فاجلس على فخدى اليمنى » ، ففعل فسألته : « هل تراه ؟ » ، فلما أجابها بنعم قالت : « فتحول فاجلس على حجرتى » ، ففعل فسألته : « هل تراه ؟ » ، فأجابها بنعم فألقت بخمارها ورسول الله مازال فى

حججها وسألته : « هل تراه ؟ » ، فقال : « لا » ، فقالت له : « يابن عم ، اثبت وأبشر فوالله إنه للملك وما هذا بشيطان » ، واقتنعت خديجة فنجحت رسول الله كل عونها وأحاطته بالحب والرعاية .

وبدأ تنزيل القرآن على رسول الله في شهر رمضان . (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) ، (إنا أنزلناه في ليلة القدر) ، (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) ، (إن كنتم آمتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) .

صدقت السيدة خديجة بما جاء رسول الله من ربه ، وآزرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدقت بما جاء منه ، وظلت بقية حياتها معه عليه السلام مؤمنة صادقة بالإيمان مسلمة صحيحة الإسلام ، وخفف الله بذلك عن نبيه ، فكلمها سمع شيئاً يؤذيه وكلما ضاق صدره بتكذيب الناس له ، فرج الله عنه بخديجة إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتهون أمر الناس عليه .

لقد وقفت خديجة رضى الله عنها - وهى أعقل العقائل وفضل الفواضل التى كانوا يلقبونها بالطاهرة - بجانب زوجها تواجهه معه مقاومة الكفار ، لم تخش سطوتهم ، ولم تهب جبروتهم ، ولم تن عزيمتها ، ولم تلن قناتها ، ولم يضعف إيمانها ، وظلت صامدة بقوة يقينها ، صابرة برسوخ عقيدتها ، واثقة بنصر ربها ، مطمئنة إلى أن زوجها يحل للبشر كل البشر خير الدنيا والآخرة .

وورد عن الإمام على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : خير نساها مريم بنت عمران ، وخير نساها خديجة بنت خويلد ، وأشار الراوى إلى السماء والأرض .

٥ - الرسالة والمعجزة

اختار الله تبارك وتعالى محمد بن عبد الله رسولا إلى الناس كافة يحمل إليهم رسالة السماء ، ويدعوهم إلى حياة جديدة تختلف في صورها وأسلوبها ونمطها عن حياتهم التي يحيونها .

نزل الوحي على الرسول والناس يعيشون في ظلام وجهل وضلال ، يعبدون الأصنام التي لا تنضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق ، ودعا الرسول إلى دين جديد رسالة من السماء حملها إلى قومه والأقربين ، ثم إلى العرب عامة والعالم كله ، ونبهم إلى ما هم فيه من غي وضلال ، وحارب فيهم الوثنية والشرك والفساد والشهوات والخرافات ، ودعاهم إلى التوحيد المطلق وإلى عبادة الله ، وأثار فيهم يقظة الضمير والإحساس بالمسئولية والتقدير للجهود ، وطالبهم بالعدالة والحرية والمساواة .

دعا رسول الله إلى الدين الجديد بكل مقوماته أقواماً كانوا يعيشون في ظل معتقدات سائدة ، وديانات متعددة منذ زمن بعيد ، فما هي هذه المعتقدات والديانات ؟

في الجزيرة العربية تعددت العقائد الدينية ، بعضها انتشر انتشاراً واسعاً والبعض كان محدوداً ولقد انتقلت هذه العقائد إلى الجزيرة عن طريق اتصالها

بدولتي الفرس والروم وماجاورها من بلدان أخرى .

في فارس انتشر مذهب ماني وعقيدته هي المانوية وهو مذهب يدعو إلى الفناء ، ولهذا كان يمنع الزواج حتى لا يكون هناك تناسل ، ودعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر في الأرض ، وكان يرى في وجود الإنسان لعنة في الأرض ، وأن الخطيئة ستظل جاثمة على الأرض لأن الإنسان نزل إليها نتيجة خطأ وقع فيه أبوه ، ولم يقبل الناس هذا المذهب فلم يدم طويلا ، وقيل إنهم ثاروا على ماني وسلخوا جلده وعلقوه مصلوباً لسباع الطير .

وظهر بعده وفي فارس أيضاً مذهب آخر دعا إليه مزدك ، نادى بالشيوع في الأموال والأعراض ، وزعم أنه جاء ليبطل الخلاف بين الأمم والاجتماعات ، ولينهاهم عن المباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ما يقع بسبب النساء والأموال ، فقد أحلها ، وجعل الناس شركة فيها ، ولم يجد هذا المذهب قبولا لدى الناس ، فقتلوه ، وتبعوا شيعته بالقمع والتشريد .

وسادت في فارس عبادة النار .

أما في بلاد الروم فقد سادت المسيحية ، وآمن بها الملوك ومعظم رعاياهم ، إلا أن مبادئ المسيحية لم تطبق ، لأن القياصرة لم يتأثروا بتعاليم الدين برغم اعتراف الإمبراطور قسطنطين الأكبر بالدين المسيحي ديناً رسمياً في مرسوم ميلانو الصادر في ٣١٣ م .

وتعددت مذاهب المسيحية ، وانقسم كل مذهب إلى فرق وشيع ، وأصبح لكل رأيه الذي يخالف به آراء الآخرين ، وتنكرت الطوائف لبعضها البعض ، مما أدى إلى العداوة والبغضاء بينها ، وأصبحت المسيحية اسماً فقط .

وكما سبق القول تأثرت الجزيرة العربية بهذه المعتقدات الدينية ، ويقول ابن قتيبة إن المجوسية عرفت في قبائل تميم ، وشاعت بين قبائل البحرين ، وذلك لقربها من بلاد الفرس ، ويقول الأستاذ العقاد في كتابه : « مطلع النور » « إن المجوسية شاعت في هذه القبائل لأنها كانت سهلة هينة عليهم لا تكلفهم بناء الهياكل ولا نحت الأصنام ، ولا ينكرون في عبادتهم للنار شيئاً ، لأن إشعال النار للقرى والاستسقاء وإشهار الحلف لم تكون مجهولة في البادية العربية » .

وانتشرت فيها أيضاً الوثنية التي تتمثل في عبادة المخلوقات من الكواكب وأصناف الحيوان والأشجار والأحجار ، وكان العرب ينظرون إليها على أنها رمز للقوى الطبيعية ، فكانوا يطوفون بها ويتاجرون عندها ، ويعتبرون المكان الذي فيه المعبود حرماً ، وكانت الوثنية بهذه الصورة جامدة بليدة في شكلها وموضوعها ، تقوم على التقليد الأبله والوراثة المتعصبة التي لا تسمع لصوت العقل ولا تصغى إلى الشعور ونداء الوجدان .

وردت الوثنية إلى العرب من خارج الجزيرة وسرت إليهم من غيرهم ، ولم تنبعث من أرضهم ، وقد سبق الإشارة إلى رحلة عمرو بن لحي الخزاعي إلى اللقاء في بلاد الشام حيث العالقي ، فوجدهم يعبدون الأصنام ، فسار بأجدها وهو هبل إلى مكة ووضعه عند الكعبة ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، وأغرم العرب بعبادة الأوثان ، فكثرت الأصنام ودخلت كل بيت ، وتعددت حتى إن أبا رجاء العطاردي قال : « كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب فحلينا عليها ثم طفنا بها » ، وكانت هذه الأصنام هي الوسيط بين عبادها وبين الإله ، ويقول المرحوم الشيخ أبوزهرة في كتابه « خاتم النبیین » إنه

برغم أنهم أغرموا بعبادة الأوثان إلا أنهم لم ينسوا الله تعالى خالق هذا الوجود ومنشئه ، وكانوا كما قال تعالى عنهم : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، وفضيلته بذلك يفرق بين وثنية الروم ووثنية العرب إذ قال : « إن وثنية العرب فيها إيمان بالله وإن لم يكن وحدانية ، بل كانوا يشركون مع الله تعالى غيره ، أما الآخرون فلا ينجيء في وثنيته ذكر الله » .

وانتشرت في البحرين والبادية عبادة النجوم والكواكب ، وروى أنه كان بمكة رجل يسمى أبوكيشة عبد لنجماً اسمه الشَّعْرَى ، ودعا قريشاً إلى عبادته ، واستجابت له بعض القبائل كلخم وقريش وخزاعة .

وعُرفت في الحيرة عبادة القمر ، وفي اليمن عبادة الشمس .
وانتشرت اليهودية في الجزيرة ، وكانت أعم انتشاراً من المجوسية ، وعاش اليهود في خيبر ويثرب ووادي القرى وتيماء ، ولم يندمج اليهود في شعب الجزيرة ، وسادت اليهودية أيضاً في اليمن على يد أسعد أبوكرب أحد ملوك حمير ، وتحمس لها ذو نواس ، وحمل أهل نجران المسيحيين على اعتناق اليهودية ، ويقول الأستاذ العقاد إنه أيّاً كان تاريخ اليهودية في اليمن وفي بلاد العرب عامة فإنها لم تكن ذات رسالة دينية أو روحية للإصلاح والصالح ، وجاء في كتاب « تاريخ اليهود في بلاد العرب » للدكتور إسرائيل ولفنسون « إن يهود حلب ودمشق كانوا لا يعتبرون اليهود « في جهات خيبر يهوداً حقاً إذا لم يحافظوا على الديانة اليهودية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تاماً » .
وانتشرت المسيحية بين الغساسنة والمناذرة ، وكانت نجران وهى بأوسط بلاد

العرب مركز المسيحية وأهم معاقلها ، وكانت بها كنيسة نجران التي بناها بنو عبد الدار ، وقد انتقلت إليها من بلاد الروم بواسطة فيميون الذي أسس كنيسة المنوفسيه ، ودخلتها قبائل متعددة مثل غسان وربيعة وتغلب وبنى أسد وقضاة وغيرها ، ولم تكن المسيحية كما قال الأستاذ العقاد حالة هداية يحيط بها مذهب واحد صالح لتعليم من يتعلمه بل كانت شيعاً سياسية ومذاهب متنازعة .

وظهرت في الجزيرة فئة قليلة تدعو إلى دين إبراهيم في مقدمتها ومن رجالها ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعثمان بن الحويرث وكعب بن لؤى ، وتفرق هؤلاء يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ، وقد ذكر ابن إسحاق أن أسماء بنت أبي بكر قال : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يامعشر قريش والذي نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى ، وأخرج الفاكهى بسنده له إلى عامر بن ربيعة قال : لقيت زيد بن عمرو وهو خارج من مكة يريد حراء فقال : « ياعامر إني قد فارقت قومي واتبعت ملّة إبراهيم وما كان يعبد إسماعيل من بعده » ، وكان ورقة بن نوفل قد كره عبادة الأوثان ، وطلب الدين في الآفاق ، وقرأ الكتب وذكره البقاعى فقال : « إنه ممن وحّد الله في الجاهلية ، فخالف قريشاً وسائر العرب في عبادة الأوثان ، وسائر أنواع الإشراك ، وعرف بعقله الصحيح أنهم أخطأوا دين إبراهيم الخليل عليه السلام ، ووحد الله تعالى واجتهد في طلب الحنيفية دين إبراهيم » ، وكان كعب بن لؤى يأمر الناس بالتفكر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وكان يحثهم على صلة الأرحام ، وأعلن تمسكه بدين إبراهيم وأخذه بالحنيفية وإيمانه بالبعث والحساب .

والآن فهناك سؤال يفرض نفسه .

هل أدت هذه المعتقدات والديانات إلى خلق الإنسان الشريف والمجتمع النظيف ؟ وهل سادت الأخلاقيات التعامل بين البشر في مختلف مواقعهم ؟

إن ملوك فارس حيث المحوسية كانوا يحكمون بأسلوب دكتاتوري ، ويُخضعون الناس لحكمهم خضوعاً يتساوى مع العبودية ، فلم يكن هناك قانون ، وكانت الأمور متجمعة في يد الأكاسرة ، وهم قوم طغاة متجبرون دستورهم في الحكم الهوى المطلق والشهوة الجارحة ، وعُرفت أرض فارس بأنها موطن انحلال سياسى واجتماعى وانحلال فى الأسرة وانحلال فى الأفراد .

أما نظام الحكم فى دولة الروم فكان يعتمد على القوة والبطش والتنكيل ، وذكر المؤرخ جيبون فى حديثه عن الدولة الرومانية : « لقد فُقدت فيها الحرية والفضيلة والشرف » ، أهدر الحكام فيها حقوق الناس وكرامتهم وإنسانيتهم فعاشوا فى خوف وذل .

أما المجتمع العربى فى الجزيرة فكان يقوم على أساس وجود طبقتين سادة وعبيد ، للسادة كل ماتعطيه الحياة من حقوق ، ولاشئ للعبيد ، يعيش العبد فى خدمة سيده الذى يفكر له ويقوده ويوجهه حتى أصبح لا يملك لنفسه شيئاً من إرادة الحياة ، فكل حياته بكل فروعها ملك سيده إن شاء منحه الحياة وإن شاء منعه وحرمه ، وهو فوق ذلك مجتمع انتشر فيه الفساد ، وأى فساد أكثر من انتشار الربا والزنا والخمر والميسر ومظاهر أخرى لا تمت إلى الإنسانية كواد البنات ، وهل وأد البنات عمل يتصف بالإنسانية أم هو عمل يتسم بالوحشية

يهدم كل عاطفة نبيلة وكل إحساس رقيق ٩ .
إذن فالمجتمعات التي أشرقت عليها الرسالة المحمدية مجتمعات فاسدة ،
حكامها طغاة ، وشعوبها مهضومة الحقوق ، ذابت فيها الفضيلة ، وانهارت
دعائم الأخلاق ، وساد الفساد ، وانتشر الكره والمقت والحقد والغضب ،
وأصبحت القوة هي صاحبة السيادة تضرب وتبطش وتصرف كيفها شاء صاحبها
وأراد ، دون معارضة لأن أحداً لا يملك من المعارضة ولا يستطيع أن يقول كلمة
« لا » .

وكان لابد من دعوة جديدة تتمثل في أهدافها إنسانية الإنسان ، فتعيد إليه
صوابه ، وتتيح له حياة يصوغ فيها فكره وحضارته ، ويعبر عن وجوده وكيانه ،
ويعيشها بإرادته ومشيشه .

وبين آلام المخاض التي عاشتها الإنسانية كانت تومض في أفق الجزيرة بشرى
رسالة خاتمة تناقلتها التوراة والإنجيل ورددتها الكهان والرهبان والأخبار .
وكانت رسالة الإسلام . . حمل لواءها رسول الله ﷺ ، رسالة تدعو إلى
دين جديد جامع ، يشمل الزمان كله والمكان كله ، وهي بذلك تختلف عن
الرسالات السابقة التي جاءت محدودة زماناً ومكاناً ، وفي هذا قال رسول الله
ﷺ : « أرسلت إلى الناس كافة ، وكان كل نبي يرسل إلى قومه » .

واختار الله سبحانه وتعالى مكة حيث أول بيت وضع للناس ، لتكون
موضع انطلاق الدين الجديد ، وكان لهذا الاختيار معنى ومغزى ، فمكة قبة
الميادين لانطلاق الدعوة الجديدة ، وهو موطن قریش ، القبيلة ذات السيادة
والعزة والجاه والسلطان والمهابة ، وصاحبة الكلمة النافذة على الجزيرة كلها ،

وذات المركز المرموق بين كل القبائل .

ولما كان الإسلام رسالة جامعة غير محدد بزمان أو مكان ، ولما كانت مكة هي منطلق الرسالة فإن الله تبارك وتعالى حين اختار رسوله محمد بن عبد الله لأداء الرسالة وللدعوة إليها ، فقد ميّزه عن سائر الرسل والأنبياء بخمس ماعطاها أحداً منهم ، وقد ذكرها رسول الله في قوله عليه السلام : « لقد أعطيت خمساً ما أعطيت أحداً قبلي ، أما أولاهن فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان كل نبي إنما يرسل إلى قومه ، ونصرت بالرعب على العدو ولو كان بيني وبينه مسيرة شهر^(١) ، وأحلت لي الغنائم كلها وكان من قبلي يعطونها ويحرمونها ، وجعلت لي الأرض مسجداً طهوراً أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلي لا يعطون ذلك ، وقيل لي سل فإن كل نبي قد سأل فأخرت مسألتى إلى يوم القيامة فهي لكم ولن شهد أن لا إله إلا الله » .

وبدأت الدعوة للدين الجديد ، وذكر ابن القيم في زاد المعاد أن مراتب الدعوة خمس ، الأولى هي النبوة ، ثم إنذار الأقربين ، ثم إنذار القوم من قريش قريتهم وبعيدهم ، ثم إنذار أهل الجزيرة قاصيهم ودانيهم أي سكان المدر والوير ، ثم إبلاغ الدعوة بعد ذلك إلى غير العرب أي إلى خارج الجزيرة ، وقد اعترض الشيخ محمد أبو زهرة على اعتبار النبوة من مراتب الدعوة لأنها هي كيان الدعوة ، وهو اعتراض نتفق معه فيه .

(١) روى أن سيدنا سليمان جاء إلى الحرم مع جنده من الإنس والجن وغيرهما وقال لهم : « هذا مكان يخرج منه عربي يعطي النصر على جميع من ناوأه وتبلغ هيئته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده في الحق سواء لاتأخذه في الله لومة لائم .. فطوبى لمن آمن به » .

بدأ رسول الله دعوته سرا ، وكانت خديجة أول من آمن ، وقال ابن الأثير : « خديجة أول خلق الله تعالى أسلم بإجماع المسلمين ، ولم يتقدمها رجل ولا امرأة » ، وعن ابن إسحاق أن خديجة كانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت ماجاء به عن الله تعالى ، وفي كلام الحافظ بن كثير : « الظاهر أن أهل بيته صلى الله عليه وسلم آمنوا قبل كل أحد : خديجة وزيد وزوجة زيد أم أيمن وعلى » ، ثم أسلم أبو بكر بعد أن قال لرسول الله : « صدقت ، بأبي أنت وأمي ، وأهل الصدق أنت ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله » ، وروى ابن إسحاق أن رسول الله قال : « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كربة ونظر وتردد ، إلا ما كان عند أبي بكر ، ماعكم عنه حين ذكرته له ، وماتردد فيه » .

ثم تتابع المؤمنون سراً ، فأسلم كثيرون رجالا ونساء .
ثم بدأت الدعوة للأقربين (وأنذر عشيرتك الأقربين) واستجاب كثيرون .
ثم أمر بالجهار بالدعوة فجهر بها ودعا الناس علانية ، واتخذ من دار الأرقم ابن الأرقم المخزومي مكاناً يجتمع فيه بأصحابه المؤمنين ، يعلمهم الدين ويقرأ عليهم القرآن .

وسمع كثيرون من خارج مكة ممن يترددون عليها بالدين الجديد ، فكانوا يقبلون على الرسول يسمعون منه ويناقشونه ، وكان البعض يقتنع ويستجيب ، فإذا عادوا إلى بلدتهم وأهلهم عرضوا عليهم الدين الجديد ويقنعونهم فيؤمنون ويدخلون فيه .

ومنذ لحظة الإعلان عن الدين الجديد بدأت قريش تفكر في كنه هذا

الدين . وهالهم ماينطوى عليه من خطر على سيادتهم لأنه يبشر بحرية المستعبدين ، ويأخذ بناصية المستضعفين ، ويدعو إلى المساواة التامة بين الناس ، ويطالب بالعدالة المطلقة ، ولا يعترف بامتياز لفرء أو بتسلط لإنسان ، ولا يفرق بين غنى وفقير فى الحقوق وفى الواجبات ، ويساوى بين الجميع فهم كأسنان المشط .

ومنذ بدأت الدعوة عارضها وتنكر لها أصحاب السيادة والمكانة والامتياز والسلطان ، وعلى رأسهم عبد العزى الذى عُرف باسم أبى هب فقد قال : « مارأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به » .

وكان للمعارضة أسباب متعددة ، أولها الخوف من زوال السيادة والسلطان ، وثانيها الحسد فى أن تكون النبوة فى محمد بالذات ، وهو يتيم فقير على حين هناك عظماء القوم وكبراءهم ، وقد أكد هذا المعنى الوليد بن المغيرة فى قوله : « أينزل على محمد وأترك أنا كبير قریش وسيدها ، ويترك أبو مسعود ابن عمرو الثقفى سيد ثقف ، ونحن عظميا القرينين » ، كما أكده أبو جهل حين سأله الأخنس بن شريق . « ياأبا الحكم ، مارأيك فيما سمعنا عن محمد ؟ » ، قال : « ماذا سمعت ؟ ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فتنى ندرك مثل هذا ؟ ، والله لا نؤمن به ونصدقه » .

ومن أهم هذه المسوغات بعض ما جاء به الدين الجديد من نظم وقواعد وأسس تتعارض تماماً مع أفكار قریش وتختلف كل الاختلاف مع آرائهم

ونظرياتهم ومفهومهم لما يجب أن يكون عليه مجتمعهم ، هذا المجتمع عاش غارقاً في الشرك عاكفاً على شرب الخمر ولعب الميسر ، أجاد موزورث سميث في تصويره فقال : « كان القرشيون ماديين على مبدأ كل واشرب ، ولم يكن لديهم إيمان أو شعور بالمسئولية ، تفشى الجهل بينهم حتى إن أعرق الناس شرفاً كان يعد الجهل مفخرة ، وكانت الرذيلة متفشية ، والروابط الجنسية منحلّة ، وما كان الزاني يلقي عقاباً ، ولم يكن للمعنويات عندهم معيار ، ولم يكن البغاء بالأمر الذي يخدش الشرف حتى إن رجالاً من الأعلام البارزين لم يجدوا غضاضة في إدارة المواخير ، وكانت النساء في الدرك الأسفل من الحطة ، فلم يقدّم لهن وزن إلا من ناحية أنهم متاع » .

هذا المجتمع المنحل جاء الإسلام ليغيّر ملامحه على أسس جديدة نظيفة من الهدى والتقوى والصلاح ، فلا فسق ولا فجور ولا إثم ولا عدوان ، وليطهر حياة أهله وناسه من العادات الذميمة ويرقي بها إلى مستوى الحب والإخاء والسلام ، وكان من الطبيعي أن ترفض قريش هذا التحول المطلوب .

وثمة مسوغ آخر هام فإن قريشاً كانت تعلم أن الإيمان بمحمد لا يعنى النطق بالشهادة فقط ، لأن الأمر لو كان مقصوراً على النطق بها لقالوها وأراحوا أنفسهم ، ولكنهم كانوا يعلمون مدلول هذه الشهادة ويدركون أن كلمة لا إله إلا الله تعنى أنه لا معبود إلا الله ، ولا أمر لشيء إلا الله ، ولا فاعل لكل شيء في الوجود إلا الله ، وهم يريدون أن يكونوا آمرين وفاعلين .

ولقد أفرغهم موضوع الحساب والعقاب فقد كان أمراً جديداً على تفكيرهم وعقليتهم ، فالحياة عندهم غاية ليس وراءها غاية ، فكانوا يستمتعون بها قدر

مايستطيعون ، وكان المستقبل غيباً محجوباً أمامهم ، وكانوا ينحرون للأوثان ويتقربون إليها أملاً في العفو والسماح ونسيان المعصيات التي يرتكبونها والتكفير عنها ، لهذا كان وقع فكرة الحساب والعقاب كالسياط ، أفرغتهم الفكرة وروّعتهم ، وكان من الطبيعي أن يرفضوا هذه الفكرة أساساً وبالتالي يرفضوا الدين الذي جاء بها .

اتخذت قريش موقف المعارضة وتكتلت قواها ضد الدعوة والداعي والداخلين في دعوته ، واتخذت كافة الوسائل وسلكت مختلف السبل لصعد هذا الدين ومنعه وقبره ، وكانت المعارضة تشدد كلما وجد الدين استجابة وقبولاً ، فكثيرون اقتنعوا به ودخلوا فيه ثقة وإيماناً وعقيدة ، وكان الداخلون فيه ألواناً مختلفة وأعماراً متعددة ، فيهم الفقير كعامر بن فهيرة ، والغني كعثمان بن عفان ، والعبد كبلال ، والسيد كعبد الرحمن بن عوف ، والشاب كسعد بن أبي وقاص وجعفر بن أبي طالب ، والمرأة كفاطمة بنت الخطاب امرأة سعيد بن زيد ، ولم يقتصر الداخلون على نوعية معينة كما كانت قريش تدعى حين وصفتهم بأنهم أراذل الناس أي الطبقة الدنيا .

ومضى رسول الله على أمر الله مظهراً لأمره لا يردده شيء ، ووقف إلى جانبه عمه أبو طالب منعه وقام دونه وأعلن حمايته له وذوده عنه ولم يسلمه أبداً ، قال له حين رأى تصميمه وأحس بمجديته : « اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً » . ثم أنشد .

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيناً

وأبو طالب له شأنه ومكانته وشرفه بين قريش ، ولهذا كانت لحمايته آثار واضحة البصمات .

ووقفت خديجة بجانب رسول الله ، فكان إذا عاد إليها مكثوداً من قومه واسته وخففت عنه وشجعت ، فإذا خرج خرج من عندها مجدداً عزمه على مواصلة الجهاد مزوداً منها بزاد الايناس والتأييد .

وكانت دعوة الرسول تعتمد أساساً على معجزته الكبرى التي وهبته إياها السماء وهي القرآن ، فقد اقتضى الأمر أن يكون كل رسول معه برهان صدقه بأنه رسول الله حقاً ، وبرهان الصدق هو المعجزة ، والمعجزة أمر خارق للعادة لا يستطيع أن يأتي بمثله بشر ، ولا استحالة مع الخوارق التي تأتي بها السماء ، فإن الخالق جلّ وعلا يقدر على كل شيء ، والخوارق بالنسبة إليه كالأمور العادية ، لأنها لا ترقى إلى مستوى القدرة على الخلق لأول مرة ، ويقول الشيخ متولى الشعراوى : « حين يأتي إنسان ويقول إنه رسول من عند الله جاء ليبلغ منهج الله أفنصدقه أم نطالبه بإثبات مايقول ؟ ، إذن كان لابد من أن نجىء مع كل رسول معجزة تثبت صدقه في رسالته وفي بلاغه من الله ، وأن تكون المعجزة مما لا يستطيع أحد أن يأتي به ، وأن تكون أيضاً ممانيع فيه قومه ، لماذا ؟ حتى لا يقال إن الرسول قد تحدى قومه بأمر لا يعرفونه ولا موهبة لهم فيه ، فالتحدى يجب أن يكون في أمر نبغ فيه القوم حتى يكون للتحدى قيمة ، ولذلك نلاحظ في معجزة كل رسول أنها جاءت فيما نبغ فيه قومه » .

ولما كانت طبيعة الرسالة إلى البشر تقتضى أن يكون الرسول منهم ، فإن معجزة كل رسول لابد وأن تتجانس مع عصره ، ولكن الله تبارك وتعالى حين

جعل القرآن معجزة رسول الله إنما جعلها المعجزة الباقية الدائمة إلى يوم الدين :
(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر ٩) ، ولقد بقي القرآن كما أنزله
الله تعالى على نبيه دون تحريف أو تبديل ، ولم يصبه ما أصاب الكتب السابقة
عليه إذ لم يتكفل الله بحفظها ، بل أوكّل ذلك للناس فقال تعالى : (والربانيون
والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله) (المائدة ٤٥) ، ولعل السرفى ذلك أن
الكتب السماوية جىء بها لزمان محدود ، والقرآن جىء به لكل زمان .

كان السحرفى عهد موسى ظاهرة اجتماعية مسيطرة فكانت معجزته متجانسة
مع هذه الظاهرة ، وكان الطب فى عهد عيسى ظاهرة اجتماعية مسيطرة فكانت
معجزته متجانسة مع هذه الظاهرة ، ولما كانت البلاغة ظاهرة اجتماعية مسيطرة
وقت بعث رسول الله ﷺ ، ولما كان القوم الذين بعث إليهم عرفوا بالبلاغة
والفصاحة وحسن الأداء وجمال المنطق وسلاسة التعبير ، فقد كانت معجزته
عليه السلام متجانسة مع هذه الظاهرة ، وكانت هذه المعجزة كتاباً وهو القرآن .
ولا يغيب عن الذهن أن معجزات الأنبياء تختلف عن رسالاتهم ، فهى شىء
آخر غيرها ، فعصا موسى وأفعالها الخارقة كانت معجزته وهى غير توراته ،
وطب عيسى كان معجزته وهو غير إنجيله ، أما القرآن معجزة محمد فلم يكن
يختلف عن جوهر الرسالة ، فقد جعل الحق حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتاباً
واحداً هو القرآن خاتم الكتب السماوية ، ولم يكن كتاب شريعة فقط إنما كان
كتاب شريعة ودلائل نبوة ، ومن أجل ذلك كان للقرآن سلطان أسرعى نفوس
مستمعيه ، فما إن استمع إليه أحد حتى وجد له رهبة وجلالا ، حتى الجن
استمعت إلى القرآن فلكت آياته قلوبهم واستولت روائعه على عقولهم (قل

أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً) (الجن ١/٢) ، واستمع عتبة بن ربيعة - وكان قد وفد على رسول الله يدعو باسم قريش إلى ترك دعوته التي فرق بها بين قومه ويفريه بصور متعددة من صور الإغراء ليتخلى عنها - استمع إلى بعض آيات القرآن من سورة (فصلت) ثم عاد إلى قومه وقال : « إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة » .

ولقد روت كتب السيرة أن ثلاثة من أشد قريش خصومة للنبي وعداء لدعوته ، وهم أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق ، خرجوا في ليلة واحدة كل منهم بمفرده ودون علم صاحبيه ليستمعوا إلى محمد وهو في بيته يرتل القرآن ، وأخذ كل منهم مجلسه ، وباتوا يستمعون له دون أن يعلم أحدهم بمكان صاحبيه ، فلما تفرقوا للعودة إلى منازلهم جمعهم طريق واحد وقال بعضهم لبعض « لاتعودوا ، فلو رآكم أحد لأضعف ذلك من أمركم ولنصر محمد عليكم » ، وفي اليوم التالي وجد كل منهم نفسه راغباً في التوجه إلى مكانه بالأمس ليستمع إلى تلاوة القرآن ، وتلاقوا عند الفجر وتلاوموا ، وبرغم ذلك التقوا أيضاً في اليوم الثالث ، فلما رأوا ما هم عليه من ضعف أمام سحر القرآن وبلاغته وسلطانه ، تعاقدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم ، هذه الرواية تؤكد أن القرآن أعجزهم وأنه كان تحدياً خطيراً للملوك البلاغة والفصاحة وأساطينها ، تحدى أن يأتوا بمثله ، ثم أمعن في التحدى أن يأتوا بعشر سور ، ثم أمعن في التحدى أن يأتوا بسورة من مثله ، وكان هذا هو إعجاز القرآن ، ولقد أدركه القوم وهم أقدر الناس على تذوق بلاغة القرآن وكان الواحد منهم يسمع الآية

تُلى فيخر ساجداً ، وروى أن إعرابياً سمع قول الحق (فاصدع بما تؤمر) (الحجر ٩٤) فخرّ ساجداً فقبل له « كيف وأنت مشرك » ، فقال : « إنما سجدت لبلاغتها » .

ولما كان القرآن هو المعجزة الأبدية التي تعهد الحق برعايتها وصيانتها وحفظها ، فإن الحق رأى أن يكون لرسول الله بعض الخوارق التي يلمسها قومه ، لتكون عاملاً ملموساً وواضحاً يساعد على الاقتناع ، منها مثلاً نبع الماء من بين أصابعه عليه السلام ، وتفجر الماء ببركته وابتعائه بمسه ودعائه ، وتكثير الطعام ، وتكلم الشجرة ، وانشقاق القمر ، ورحلة الإسراء والمعراج .

وكان أول من جهر بالقرآن - بعد رسول الله ﷺ - عبد الله بن مسعود فقد اجتمع أصحاب رسول الله وقالوا : « والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به لها فن رجل يسمعهموه » ، فعرض عبد الله نفسه ولكنهم خافوا منهم عليه « إننا نخشاهم عليك » ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعون من القوم إن أرادوه » ، فقال لهم : « دعوني فإن الله سيمنعني » ، وفي الضحى وقريش في أندية أُنِي عبد الله المقام وقرأ بعض آيات من سورة الرحمن رافعاً بها صوته ، فقاموا إليه وجعلوا يضربون في وجهه ، وقال لأصحابه : « ما كان أعداء الله أهون علىّ منهم الآن ، ولئن شئت لأغادينهم بمثلها غداً » .

٦ - . . . وكان الصراع

وبدأ الصراع في مكة .

رسول الله يدعو جهاراً للدين الجديد من غير مواناة ولا تقصير ، فيلتقى بأهل مكة ذاتهم ويلتقى بالوفود القادمة إليها في المواسم ، وأخذت الدعوة طريقها إلى الأسماع والقلوب فلم تشرق شمس يوم جديد إلا والمسلمون في ازدياد والدعوة في انتشار .

وقريش وقفت تعارض الدعوة وتقاوم الرسول ، واتخذت في سبيل ذلك وسائل متعددة ، وأساليب مختلفة ، وبذلت أقصى الجهد في محاولات لقبر الدين الجديد .

بدأت فهاجمت الداعي أول ماهاجمت ، وحاولت أن تثبت للناس عدم صدق دعوته حتى ينصرفوا عنه فلا يجد أذنأ مصغية أو قلباً متفتحاً ، قالوا عنه إنه ساحر دون أن يكون لديهم دليل سحره ، ثم قالوا شاعر وهم يعرفون أنه لم ينظم شعراً في حياته ، ثم قالوا مجنون وهم الذين وصفوه بالأمين لكمال خلقه ، ولما فشلوا في كل ما دعوهم اتجهوا إلى عمه أبي طالب الذي أظله بالحماية علهم يجدون عنده السبيل والخلاص ، فأرسلوا إليه وفداً يقول له : « ياأبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنّا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنّا

والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله ، وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الطرفين ، فردّهم أبو طالب ردّاً جميلاً .

* ثم عادوا إليه مرة أخرى ومعهم عمارة بن الوليد وقالوا : « هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله ، فخذّه فلك عقله ونصره واتخذّه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرّق جماعة قومك ، وسفّه أحلامهم ، فنقتله فإنما هو رجل برجل » ، وأبدى أبو طالب لهم سخف الفكرة ورفض اقتراحهم « والله لبئس ماتسوموني ، أعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً » .

وأقى عتبة بن ربيعة رسول الله مبعوثاً من قومه إليه يعرض عليه أموراً حتى ينصرف عن دعوته قال : « فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ريثاً تراه لاتستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » ، فلما فرغ عتبة قال له الرسول : « فاسمع مني » ، وقرأ آيات من القرآن من سورة السجدة وعتبة منصت ، ثم أمسك على فيه ﷺ وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ، وعاد إلى قومه بوجه غير الوجه الذي ذهب به ، فقد لقي رجلاً لامطعم له في مال ولا في تشريف ولا في ملك ولا هو بالمریض ، وسمع قولاً ماسمعه مثله قط ، وقال لقومه : « إني سمعت قولاً والله

ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش ، أطيعوني فاجعلوها لى ، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه . . . » .

ثم اجتمعت قريش برسول الله في الكعبة ، فقالوا له : « سل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، ولييسر لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألتك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول » ، فرد عليهم رسول الله قائلا : « ماأنا بفاعل ، وماأنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر حتى يحكم الله بيننا » .

ثم عادوا فقالوا له : « سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنائاً وكنوزاً من ذهب وفضة ، يغنيك بها عما تراه تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم » ، فقال لهم : « ماأنا بالذى يسأل ربه هذا » .

ونجاسر عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة وهو ابن عمه رسول الله ﷺ وقال : « والله لأؤمن بك أبداً ، حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك ، حتى تأتيتها ، ثم تأتى معك بنسخة منشورة معها أربعة من الملائكة

يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك ماظنت أني أصدقك »
 وكان من الواضح أنهم طلبوا ماطلبوا لاليؤمنوا ، ولكن ليضعوا رسول الله
 في موقف حرج ، وليعلنوا قوة جدلهم ، ودليل ذلك قول ابن عمته :
 « ماظنت أني أصدقك » ، فالتكذيب سابق للدليل ، والكفر راسخ في
 النفوس ، والتصميم على المقاومة يمتلك مشاعرهم وعواطفهم ، وجاء رد رسول
 الله يزيدهم حقداً وغضباً فقالوا : « إنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرتنا
 إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .
 وكان التحدى واضحاً ، فأغروا برسول الله سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه
 ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله لا يعبأ بهم ، مظهراً لأمر
 الله لا يستخفى به مبادلهم بما يكرهون من عيب آهتهم واعتزال أوثانهم وفراقه
 إياهم على كفرهم .

ولجأوا إلى اليهود - وهم يعلمون أنهم كارهون لدعوة رسول الله ، مكذبين
 لما جاء به - يستعينون بهم ، فبعثوا إليهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي
 معيط ، وقالوا لها « سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ،
 فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء » ،
 فخرجوا إلى المدينة وسألا أخبار اليهود عن رسول الله ، وقال لهم : « إنكم أهل
 التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا » ، فقال لها أخبار اليهود :
 « سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهوى نبي مرسل ، وإن لم
 يفعل فالرجل متقول ، فروا رأيكم فيه ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ،
 وما كان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد

بلغ مشارق الأرض ومغاريها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ، ماهى ؟ »
 ووجهت قريش الاسئلة الثلاث إلى رسول الله ، فجاءه جبريل بسورة الكهف
 وفيها خبر الفتية الذين ذهبوا ، وبأمر ذى القرنين (ذكر أن ذى القرنين كان
 رجلاً صالحاً من أهل مصر من ولد يونان بن يافث بن نوح وكان من الملوك
 العادلة وكان الخضر صاحب لوائه الأكبر - راجع السيرة الحلبية/الطبعة
 الأولى/١٩٦٤) ، وبالجواب عن الروح الوارد في سورة الإسراء .

ولم تقتنع قريش واستمرت في غيها ، وبدأت موجة الاستهزاء برسول الله ،
 قال ابن عبد البر : « وكان المستهزئون الذين قال تبارك وتعالى فيهم : إنا كفيناك
 المستهزئين أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط والحكم بن العاص بن أمية
 والعاص بن وائل » ، من استهزاء أبي جهل مثلاً أنه كان يسير خلف رسول الله
 يخلج بأنفه وفمه ويسخر منه ، ومن استهزاء أبي لهب وعقبة أنها كانا يطرحان
 القدر على باب رسول الله وفيها قال عليه السلام : « كنت بين شر جارين
 أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على يائي » ،
 وكان عقبة ييصق على رسول الله ، وقال الضحاك : « لما بزق عقبة لم تصل
 البزقة إلى وجه رسول الله ﷺ ، بل وصلت إلى وجهه هو كشهاب نار فاحترق
 مكانها » ، وكان الحكم يغمز للنبي فدعا الرسول « اللهم اجعل به وزغاً »
 فرجف وارتعش .

وكان أكثر الناس عداوة للرسول عمه عبد العزى بن عبد المطلب
 (أبو لهب) ، فقد كان شديد التعصب لدين قريش وتقاليدها ، وكان أشد مايسوءه
 أن تمس قداسة الآلهة أو تتمنن كرامة الآباء ، وكان فيه حدة وسفاهة ، قال

لرسول الله حين اجتمع بقومه : « لانخرج عن دين قومك ، ولانعرضهم لغضب العرب ، فإن قومك لا يستطيعون مقاومة العرب قاطبة ، وليس لهم بحربهم طاقة . . فاربع (احترس) على نفسك وعلى بنى أبيك ، واعلم أن العرب لن يتركوك ، ولن يشق عليهم أن يشبوا عليك فيقتلوك ، فارجع إلى دين آبائك وأجدادك خير لك ، وإلا حبسناك حتى تشفى من مرضك الذى أنت فيه ، وحتى نحول بين العرب وبينك ، فنحن أولى بتأديبك حتى يثوب إليك رشدك وتبرأ من علتك » ، وقال له رسول الله ردا على قوله هذا بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إن الرائد لا يكذب أهله ، ولو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه فقال : وأنذر عشيرتك الأقربين ، وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين فى الميزان شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، والله للمؤمن كما تنامون ، وللمعثر كما تستيقظون ، ولتحاسن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها للجنة أبدأ أو النار أبدأ ، والله ما أعلم شاباً جاء قومهم بأفضل مما جئتمكم به ، إني جئكم بخير الدنيا والآخرة ، فمن يخبئني إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟ » ، وثار أبو لهب وقال : « وهذا والله الباطل والخيال وكلام النساء فى الحجال » ، واندفع فى عداوته دون أن يرعى رحماً ولا قرى ، وانساق فى عداوته انسياقاً عنيفاً حتى صار أعدى عدو للنبي ، وكذلك كانت امرأته أم جميل تحمل فى صدرها الضغن والكراهة والغضب والعداوة مثل ما كان يحمل زوجها ، وكانت تعمل على تحقيره وامتهانه ، وكانت ترمى فى طريقه الشوك والقذر ، ولم تكن تنطق باسمه فى

بجالسها أبداً ، وإنما كانت تدعوه مذمماً ، وما روى عنها قولها :

مذمماً قلينا

ودينه أبينا

وأمره عصينا

وانتهجت قريش اتجاهاً جديداً فتعمدوا إيذاء رسول الله ، وتولى هذه المهمة شيخ السفهاء من قريش أبو جهل الذي دبر أمر قتله ، غير عابئ ببني هاشم إن هم أخذوا بثأره ، وأفصح عما دبره فقال : « يامعشر قريش ، إن محمداً قد أبي إلا ماترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر ، فإذا سجد في صلاته فضعت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم » ، وفي الغد حمل حجراً وانتظر رسول الله بالمسجد ، فلما قام ليصلي تقدم منه حين سجد ، واحتمل الحجر حتى إذا مادنا منه رجع منهياً ممتنعاً لونه مرعوباً ، قد يبست يداه على الحجر حتى قذفه من يده ، وقال لرجال من قريش كانوا يرقبونه « قمت لأفعل ماقلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته (رقبته) ولأنيا به لفحل قط ، فهم أن يأكلنى » .

وحاول عقبة أن يخنق رسول الله فى الكعبة ، فقد هاجم رسول الله وهو يصلى ووضع ثوبه على عنقه يريد خنقه ، فرآه أبو بكر فأسرع يدفعه وهو يقول : (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) .

وامتد الإيذاء إلى أصحاب محمد الذين كانت لهم عشيرة تحميمهم فقد عذب عثمان بن عفان ، إذ أوثقه عمه بجبل من مسد وجعل يضربه ضرباً مبرحاً ، وكان الزبير يُلف في حصير ويُترك ليستنشق الدخان ، وضرب عمر بن الخطاب أخته فاطمة حتى سال منها الدم واعتدى على زوجها سعيد بن زيد ، وقُيد أبو جندل في الحديد وحُبس ، وضُرب أبو بكر حتى شُج رأسه وسال دمه وغُشى عليه وكاد يهاجر إلى الحبشة لولا أن أجاره ابن الدغنة سيد الأحابيش .

أما أصحاب رسول الله الذين لم يكن لهم سند يحميمهم أو قوة تمنعهم ، فقد كان إيذاؤهم صورة وحشية قاسية ، إذ انقضت كل قبيلة على عبيدها وإمامها يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ليتركوا دين محمد وليعودوا أدرجهم إلى دين السادة ، قال ابن إسحاق إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، فمن استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم . ومن هؤلاء الذين اضطهدوا وعذبوا بلال بن رباح ، كان سيده أمية بن خلف يلقيه إذا حميت الشمس وقت الظهيرة الذي تتحول فيه صحراء مكة إلى نارة قاتلة فيطرحونه على وجهه وظهره على حصاها الملتهب ، ويأمر بأن تلقى على صدره صخرة ضخمة ويقول له : « لاتزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى » ، فيتحمل بلال هذا البلاء ويرفض أن يعود إلى الشرك ويردد « أحد . . أحد . . » ، وراه أبو بكر عتيق النار ومعنى أهل الإيمان فسأل أمية : « ألا تتق الله في هذا المسكين ؟ وحتى متى ؟ » ، فأجابه : « أنت أفسدته فأنقذه مما ترى » ويعرض عليه أبو بكر : « عندى غلام على دينك أسود أجلد

من هذا أعطيك به » ، وأخذ أبو بكر بلالا وأعطاه حريته وأطلقه من عبوديته .
ومنه خباب بن الأرت ، وصهيب بن سنان الرومي ، وعامر بن فهيرة ،
وأبو فكيمة ولم يقتصر التعذيب على الرجال وحدهم ، وإنما امتد إلى النساء
أيضاً ، فعذب أبو جهل زُبَيْرَة حتى عميت ، فقال لها : « إن اللآلئ والعزى
فعلا بك » ، فقالت له : « وما يدري اللآلئ والعزى من يعبدها ، ولكن هذا
أمر السماء وربي قادر على رد بصري » ، فردّ الله بصرها فقالت قریش : « هذا
من سحر محمد » ، وعذب الأسود بن عبد يغوث أم عُنَيْس وعذب بنو
عبد الدار النهديّة ، وعذب عمر بن الخطاب (قبل إسلامه) لبينة ، وقد
اشتراهن أبو بكر ثم أعتقهن .

وتولى أبو جهل تعذيب أسرة كاملة أسلم أهلها جميعاً ، عمار بن ياسر وأبيه
وأمه ، فمات ياسر نتيجة التعذيب ، وطعن أبو جهل سمية بحربة في قلبها فماتت ،
وشدّد العذاب على عمار تارة بالحر ، وتارة بوضع صخر شديد الحرارة حامياً
على صدره ، وتارة بالتغريق ، وقال له : « لن نتركك حتى تسب محمداً وتقول
في اللات والعزى خيراً » ، ففعل فتركوه ، فلما أتى رسول الله ﷺ روى له
أمره ، فسأله الرسول « كيف تجد قلبك ؟ » ، أجده مطمئناً بالإيمان » ، فقال له
الرسول : « يا عمار ، إن عادوا فعد » .

وكثيرون لم يتحملوا قسوة التعذيب واضطروا إلى مجازاة المشركين - كما فعل
عمار - فكانوا يرضونهم بظاهر من القول وقلوبهم عامرة بالإيمان ، عن سعيد
ابن جبیر قال : « قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من
أصحاب رسول الله من العذاب وما يُعذرون به عن ترك دينهم ؟ ، قال : نعم

والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ويحيعونه ويعطشونه ، حتى مايقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا لله اللآت والعزى إهلك من دون الله ، فيقول نعم ، حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له هذا الجعل إهلك من دون الله ، فيقول نعم ، افتداء منهم مما يبلغون من جهده » ، وقال ابن كثير : « فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الإهانة والعذاب البليغ » .

وكان رسول الله يتألم لأصحابه ، وكان يدعوهم إلى التحمل والصبر حتى يأتي الله بالفرج ، وكان يؤكد لهم أن قوة احتماهم ورسوخ إيمانهم وصبرهم على العذاب هو طريقهم إلى الجنة ، وأن الله مطلع على أحوالهم عليم بهم ، وأن نصره تعالى آت لا ريب فيه ، وقد روى أن رسول الله ﷺ كان يمر بآل ياسر وهم يعذبون فيقول لهم : « صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » .

٧ - ملك لا يظلم عنده أحد

تمادت قريش في عداوتها وعدوانها ، وأصبح من الضروري توفير الحماية للمسلمين ، ولكن عددهم مازال محدوداً لا يشكل قوة للردع ، ورسول الله لا يملك القدرة على منعهم مما هم فيه من بلاء ، والمسلمون جميعاً على مختلف مستوياتهم القبلية يتعرضون للتعذيب الوحشي ، وهم متشبثون بدينهم ، صابرون على ما ينزل بهم ، وكلهم أمل في ربهم ورجاء أن يجد لهم فرجاً ومخرجاً مما هم فيه .

وتطلب الموقف تصرفاً سريعاً عاجلاً توفيراً للحماية ، وفرض رأى واحد نفسه على الموقف ، وهو أن يترك المسلمون مكة فراراً بدينهم من أن يفتنوا فيه ، وفراراً بأنفسهم من المهانة والسخرية التي يتعرضون لها دوماً .

إذن فالرأى هو الخروج من مكة بحثاً عن الأمان والحماية ، وبعداً عن أيدي قريش ولكن إلى أين ؟ ، إن المكان الذي يخرجون إليه يجب أن تتوافر لهم فيه حرية الدين وحرية العبادة ، وحرية إقامة شعائر الدين ، كما يجب أن يكون هذا المكان غير خاضع لسلطان سادة قريش وسطوتهم .

واختار رسول الله الحبيشة ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه « تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم » ، فسألوه : « إلى أين نذهب ؟ » ، فقال عليه

السلام « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد . وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .
وكانت أول هجرة في الإسلام إلى الحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث رسول الله ﷺ .

ولاشك في أن الهجرة إلى الحبشة كانت في مصلحة الإسلام والمسلمين ،
ففوق ما حققته من دفع الأذى والاعتصام منه ومنع الفتنة ، فإنها كانت فرصة
للتعريف بالإسلام ، وعرض مبادئه ، وشرح أهدافه ، وتوضيح معالم رسالته .

خرج إلى الحبشة - أول من خرج - أحد عشر رجلاً وأربع نساء ، منهم من
هاجر بأهله ومنهم من هاجر بنفسه ، وقيل إن أول مهاجر كان حاطب بن أبي
عمرو ، وقيل سليط بن عمرو ، إلا أن رسول الله قال : « إن عثمان أول من
هاجر مع أهله بعد لوط » .

وكان على رأس هذا الفريق المهاجر عثمان بن مظعون ، وكان من أفراد
عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ، ومصعب بن عمير ، وأبو حذيفة
ابن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن
عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ،
وعامر بن ربيعة وامرأته ليلي بنت أبي حثمة ، وسهيل بن بيضاء وأبو سبرة بن
أبي رهم .

ثم خرج بعدهم كثيرون منهم جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت
عُبَيْس ، وعمرو بن سعيد وامرأته فاطمة بنت صفوان ، وأخوه خالد وامرأته

أمينة بنت خلف ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه عبيد الله وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان .

وأجمعت المصادر على أن جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين كانوا ثلاثة وثمانين رجلاً عدا ما كان معهم من الأولاد والنساء . وفكر أبو بكر في الهجرة حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، فاستأذن رسول الله في الهجرة فأذن له ، فخرج حتى إذا سار من مكة يوماً أو أكثر لقيه ابن الدغنة وهو سيد الأحابيش فسأله وجهته فقال : « أخرجني قومي وآذوني وضيقوا عليّ » ، فتعجب لموقف قريش من أبي بكر وسأله : لم ؟ « فوالله إنك لتزين العشرة وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف وتكسب المعلوم ، ارجع فإنك في جوارى » ، فرجع معه حتى إذا دخل مكة قال ابن الدغنة : « يامعشر قريش ، إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير » ، ولا شك في أن لقاء أبي بكر وابن الدغنة كان من إعداد وترتيب السماء ، فإن الحق كان قد جعل لأبي بكر شرف صحبة رسول الله ومرافقته حين هجرته عليه السلام من مكة إلى المدينة ، وهكذا ادخرت السماء أبا بكر دون غيره لأعظم رحلة في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وفي تاريخ البشرية .

إلا أن جوار ابن الدغنة لأبي بكر لم يطل به الزمن ، فإن رجلاً من قريش ساروا إليه وقالوا : « إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ماجاء به محمد يرق ، وله هيئة ونحن نتخوف منه على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم ، فآتة فره بأن يدخل بيته فليصنع ما يشاء » ، وكان أبو بكر يصلي أمام بيته ، وكان رقيقاً إذا قرأ استبكي ، فيقف النساء والعبيد والصبيان عليه يعجبون

لما يرون من هيئته ، ومشى إليه ابن الدغنة وقال : « ياأبا بكر إني لم أجرك لتؤذى قومك ، وقد كرهوا مكانك الذى أنت به وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع ماأحببت » ، وأبى أبو بكر أن يكون لابن الدغنة رأى أو أمر أو سلطان فى شئونه بسبب جواره له فرد عليه جواره قائلاً : « أرضى بجوار الله » ، وقام ابن الدغنة فقال : « يامعشر قريش ، إن ابن أبى قحافة قد ردّ علىّ جوارى ، فشأنكم بصاحبكم » .

استقبل النجاشى المهاجرين المسلمين أحسن استقبال ، وأكرم وفادتهم ، وهباً لهم الحياة الهادئة الآمنة ، وتركهم فى أرضه أحراراً مطمئنين ، وشجعهم ذلك على أن يبعثوا فى طلب إخوانهم فى مكة الذين يتعرضون للتعذيب والأذى والمهانة ، قال جعفر بن أبى طالب : « لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا خير جار ، وأمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه » .

وتلقى النجاشى رسالة من أبى بكر يوصيه بالمسلمين المهاجرين ، كما تلقى رسالة من رسول الله تضمنت أمرين هامين ، أولهما دعوته إلى الإسلام ، وقد استجاب النجاشى للدعوة ، وكتب بذلك إلى الرسول وبعث وفدًا من الحبشة على رأسه ابنه ، التقى بالنبي لبيان الطاعة والخضوع لله ولرسوله ، وثانيهما متابعة العطف على المهاجرين والإحسان إليهم وعدم إرهابهم حتى يعيشوا فى ظله آمنين مستقرين مطمئنين ، وجاء فى رسالة الرسول إلى النجاشى ، « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصمح ملك الحبشة ، سلام عليك فأبى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من

روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته ، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وكتب النجاشي إلى رسول الله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر ، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته ، لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت فيه من أمر عيسى ، فو رب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً ، وقد بايعناك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وأرسلت إليك بأربح بن الأصحم ابن أبجر ، فإني لأملك إلا نفسي ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فإني أشهد أن ماتقول حق » .

روى البيهقي بسنده عن أبي أمامة فقال : « قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ ، فقام يخدمهم عليه الصلاة والسلام ، فقال أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله ، فقال إنهم كانوا لأصحابي مكرمين ، وإني أحب أن أكافئهم » .

ترى ماذا كان موقف قريش من هذه الهجرة الأولى إلى الحبشة ؟
عندما علمت قريش بأمر الهجرة ، خرجت في آثار المهاجرين حتى جاءوا إلى البحر فلم يجدوا أحداً منهم ولم يدركوهم .

ولكن بعد أن تيقنوا من وصولهم إلى الحبشة ، ومن حسن استقبال النجاشي لهم ، ومن حياتهم الهادئة الوداعة في أرضه وبجواره ، أرادوا النكاية بهم وملاحقتهم وإفساد طيب الإقامة عليهم ، ومحاولة إخراجهم من هناك وإعادتهم ، قال ابن إسحاق : « لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد استقروا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ائتمروا بينهم ، أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدتين إلى النجاشي ، فيردهم عليهم ليفتنوهم في دينهم ويخرجوهم من الأرض التي اطمأنوا بها وآمنوا فيها » ، وروى عن أم سلمة أنها قالت : « لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي أميناً على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدتين ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة » .

واختارت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة وقيل عمرو بن العاص وعمار بن الوليد بن المغيرة ، وزودتها بالهدايا للنجاشي ولبطارقتة ، قال ابن الأثير في تاريخه الكامل : « لما رأت قريش أن المهاجرين قد اطمأنوا بالحبشة وأمنوا ، وأن النجاشي قد أحسن صحبتهم ائتمروا بينهم فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ومعها هدية له وإلى أعيان أصحابه » ، وقال ابن إسحاق : « فأرسلوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وأرسلوا معهم هدايا يدفعونها للنجاش ليغروه بها » .

وأرادت قريش شيئاً وأراد الله شيئاً ، وكانت إرادة الله هي الغالبة ، فارتد مبعوثا قريش على أعقابهما دون أن يتالا غرضهما .

وصل عمرو وعبد الله إلى الحبشة ومعها الهدايا ، فاتصلوا أول ما اتصلوا بالبطارقة ، وسلموا كلا منهم هديته ، ثم حدثوهم عن غلمان من سفهاثهم فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الأحباش ، جاءوا بدين مبتدع لا يعرفه أحد في الجزيرة أو في الحبشة ، وأنها قد جاءا مبعوثين من أهلهم لرد هؤلاء الغلمان ، وكان للهدايا أثرها في نفوس البطارقة فوعدهما بالمساعدة ومهدوا للقائهما بالنجاشي ، فلما التقى بهما سمع منهما ، وأشار عليه أصحابه بتسليم المسلمين ، قال عمرو مخاطباً النجاشي : « إن نفراً من بني عمتنا نزلوا أرضك ، فرغبوا عنا وعن آلهتنا ، ولم يدخلوا في دينكم بل جاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قريش لتردوهم إليهم » ، ولم ينس رجال النجاشي وعدهم لعمرو وزميله فقالوا بعد أن انتهى عمرو من حديثه : « ادفعهم إليهما فها أعرف بحالهم » .

والنجاشي رجل دين ، ورجل حق وعدل ، ولا يظلم عنده أحد كما قال عنه عليه السلام ، ولهذا لم يشأ أن يقرر أمره ويتخذ قراره بناء على حديث عمرو ، وإنما أراد أن يستمع إلى الرأي الآخر قبل أن يصدر حكمه فقال : « لا والله ، حتى أعلم على أي شيء هم ؟ لأسلم قوماً جاوروني ونزلوا بلادى ، واختاروني على من سواى حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان ، فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما ، وإن كانوا على غير مايقول هذان ، منعتهم وأحسنتم جوارهم » . ودعى المسلمون المهاجرون للمثول بين يدي النجاشي ، فحضرُوا وقد اتفقوا فيما بينهم على أن يكون المتحدث جعفر بن أبي طالب ، فلما صاروا على باب النجاشي صاح جعفر قائلاً : « جعفر بالباب يستأذن ، ومعه حزب الله » ،

فأجابه النجاشي : « نعم ، يدخل بأمان الله وذمته ، فدخل وخلفه رفاقه فسلموا بتحية الإسلام » .

وحاول عمرو أن يثير النجاشي عليهم في أول اللقاء فقال : « ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون لم يحويك بتحيته » ، فسأل النجاشي : « مامنكم ألا تسجدوا وتحبوني بتحيتي التي أحيا بها ؟ » ، فقال جعفر على الفور : « إنا لانسجد إلا لله عز وجل » ، ثم ألقى جعفر خطبة أمام النجاشي فقال : « أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأثي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، يأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم . » ، وعدد عليه أمور الإسلام ثم قال :

« فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، فعبداً لله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورجونا ألا نظلم عندك » .

وبعد الخطبة سأله النجاشي : « هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ » فتلا عليه جعفر صدرأ من سورة مريم ، فبكى النجاشي وأساقفته وقال لهم : « إن

هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة» ، ثم قال لعمره وصاحبيه : « انطلقا فوالله لأأسلمهم لكما أبداً » .

ورأى عمرو أن المسلمين قد كسبوا الجولة ، وأن الفرصة ستقلت من يده ، فأعمل عقله بسرعة وهو عمرو المعروف بين العرب بأنه أدهى العرب جميعاً - ورأى أن يضرب ضربته ، فقال للنجاشي : « إنهم يخالفونك في ابن مريم ولا يقولون إنه ابن الله عز وجل وعلا » ، فسأل النجاشي : « ماتقولون في ابن مريم وأمه ؟ » ، فقال جعفر « نقول كما قال الله عز وجل روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء » ، فقال النجاشي : « يامعشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، مايزيدون على ماتقولون ، أشهد أنه رسول الله وأنه الذي بشر به عيسى في الإنجيل » ، وتساءل النجاشي : « أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبياً مرسلًا » ، فقال من عنده من الرهبان والقسيسين والأساقفة : « اللهم نعم ، قد بشرنا به عيسى ، قال من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي » ، فعند ذلك قال النجاشي : « والله لولا ماأنا فيه من الملك لأتيته فأكون أنا الذي أحمل نعله وأوضئه » ثم التفت إلى المسلمين وقال : « انزلوا حيث شئتم ، آمنون بأرضي ، ماأحب أن يكون لي ديراً من ذهب وأن أؤذى رجلاً منكم » ، ثم أمرهم بمايصلحهم من الرزق وقال : « من نظر إلى هؤلاء الرهط نظرة تؤذيهم فقد عصاني » ، ثم أمر برد هدية عمرو وصاحبه قائلاً : « ردّوا عليهم هداياهم فلاحاجة لي بها ، فوالله ماأخذ الله تعالى مني الرشوة حين ردّ على ملكي فأخذ الرشوة » (كان أبو النجاشي الخالي ملكاً للحبشة ، وثار عليه الأحباش وقتلوه ، وولوا أخاه مكانه ، فنشأ النجاشي في

حجراً عمه وكان لعمه اثنا عشر ولداً لا يصلح واحد منهم للملك ، فلما رأت الحبيشة نجابة النجاشي خافوا إن تولّى عليهم يقتلهم بقتلهم أباه فطلبوا من عمه قتله ، ولكنه رفض وأخرجه وباعه ، ثم مرت صاعقة ومات عمه ، ووجدت الحبيشة أنه لا يصلح لها إلا النجاشي فعادوا به من عند الذي اشتراه ، وعقدوا له التاج وملّكوه عليه فسار فيهم سيرة حسنة) ، ولقد حمد الرسول عليه السلام للنجاشي حسن استضافته لأصحابه ، ويوم مات نعاه الرسول إلى أصحابه فقال عليه السلام : « مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحابمة (اسم النجاشي) » ، وخرج بهم إلى المصلّى فصلى عليه صلاة الغائب .

ولقد حدث خلال وجود المسلمين بالحبيشة ، أن ارتد عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانا قد هاجرا معاً ضمن من هاجر من بنى خزيمية ، ورفضت أم حبيبة أن تتبع زوجها وأن تترك دينها لأنه ترك دينه ، بل بقيت على دينها ، وأصرّت على إيمانها ، وظلت مسلمة مؤمنة صادقة الإسلام ، وقد قدر الحق تبارك وتعالى موقفها ، فكافأها بأن جعلها أمّاً للمؤمنين ، فنالت بذلك شرفاً كبيراً وعظيماً . ولا عجب في أن تنال هذا التشريف فهي أولاً ابنة أبي سفيان ، زعيم قريش ، وخصم النبي العنيد ، وعدوه اللدود ، وإصرارها على الإسلام يعرضها لبطش أبيها وهو فحل قريش وكبيرها وسيدها المطاع ، وهي ثانياً ابنة هند عدوة الرسول الأولى ، ومخاصمته العنيدة ، التي كانت تؤلب عليه الناس ، وتنفرهم منه ، وإصرارها على دين محمد يعرضها لنقمة أمها ، وهي ثالثاً بعد أن ارتد زوجها ولم تلن إلى توسلاته في طلب اللحاق به وثبتت على دينها ، بقيت في الحبيشة وحيدة غريبة

لاندري ماتصنع ، وتركت أمرها إلى الله وتوكلت عليه ، لهذا كله كفلتها السماء ورعتها وحمتها ، فرق لها قلب الرسول الكبير ، وقرر أن يتخذها زوجة له ، فكتب بهذا المعنى إلى النجاشي ليزوجه إياها ، ولما أبلغها النجاشي كادت تطير فرحاً واستبشاراً ، وسر خاطرها ، وأكرمها النجاشي ، وأحسن إليها وأصدقها عن النبي أربعمائة دينار مع هدايا نفيسة ، عن أم حبيبة قالت : « رأيت في المنام وكأن عبيد الله بن جحش زوجي بأسوأ حال ، وتغيرت صورته فإذا هو يقول حين أصبح : يا أم حبيبة ، إني نظرت في هذا الدين ، فلم أر ديناً خيراً من دين النصرانية ، وقد كنت دنت بها ، ثم دخلت في دين محمد ، ثم خرجت إلى دين النصرانية .

فقلت : والله ماخير لك » ، ثم أخبرته بما رآته له فلم يحفل بذلك وأكب على الخمر حتى مات » ، وعن أم حبيبة أيضاً قالت : « رأيت في المنام كأن آتياً يقول لي : يا أم المؤمنين ففزعت ، وأولتها بأن رسول الله ﷺ سيتزوجني » .

٨ - باسمك اللهم

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ذات آثار بعيدة المدى داخل المجتمع المكي بكل طوائفه مسلمين ومشركون .

فالمسلمون الذين عاشوا في رحاب النجاشي عاشوا آمنين مطمئنين ، وباشروا حياتهم في هدوء وسكينة ، ومارسوا شعائرهم الدينية دون خوف .

والمسلمون في مكة عاشوا مطمئنين على إخوانهم المهاجرين ، وظلوا على تمسكهم بدينهم وصمدوا أمام إيذاء قريش صموداً نابعاً من رسوخ عقيدتهم وعمق إيمانهم وتحديهم الواضح لمحاولات قريش لفتنتهم عن دينهم .

ورسول الله صابر على الإيذاء ، مستمر في الدعوة معتمداً على الله ، مطمئناً إلى تأييده واثقاً من عونه ونصرته ، مدركاً أن قريشاً لن تناله بسوء بسبب حماية السماء له ، مؤمناً بأن كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

ولهذا كله كان عدد الداخلين في الإسلام يزيد كل يوم ، وقد تكون الزيادة محدودة وانتشار الإسلام ضئيلاً ، ولكن هذا كان يؤكد أن الإسلام يسير في طريقه ، ويبشر المسلمين ببلوغ الغاية ، وينذر المشركين بسوء العاقبة .

أما قريش فكانت تعيش في جو يسوده الحزن والأسى والهم واضطراب الفكر ، وخاصة بعد أن عاد مبعوثاها خائبين ، ونقلوا إليهم ما كان من إكرام

النجاشي للمسلمين ، لقد كانت تبغى محاربتهم في كل موقع ، وأن تضيق عليهم الخناق فلا يجدون مكاناً يلوذون به ، ويضطرون إلى العودة إلى بلادهم حيث ينتظرهم العذاب ، ويكون أمامهم أحد سبيلين ، إما أن يرجعوا إلى دينهم الأول ويكفروا بمحمد وبدعوته ، وإما أن يُقضى عليهم فيموتوا ، وبموتهم تُقبر الدعوة الإسلامية وينتهي الأمر ، ولكن فشل المبعوثين جعل قريشاً في دوامة من الفكر ، وكان وجود المسلمين المهاجرين في الحبشة سألين معافين أحراراً يثير فزعهم وخوفهم ، ويشيع في مكة جواً من الخوف ، ويبلبل الأفكار ، ويزلزل القلوب ، فعاش الكفار حيارى لا يدرون ماسوف يأتي به الغد ، فقد كانوا يرون في بقاء المسلمين هناك خطراً جسيماً عليهم وعلى وجودهم وديانتهم ومستقبلهم ، وكانوا يرون أن وجود المسلمين في الحبشة سيخلق لهم الجو الملائم الذي يملكون فيه القدرة على الدعاية لدينهم ودعوتهم ، وقد يتأثر أهل الحبشة بهذه الدعاية فترق قلوبهم للإسلام ويسلمون ، وتقوم في بلادهم دولة إسلامية تحمل عبء الدعوة للدين والدفاع عنه ، وتصبح قوة تواجههم وتقضي عليهم ، وكانوا يخشون أيضاً أن تمتد هذه الدعاية إلى العرب المجاورين لهم فيستجيبون لها ويدخلون في الإسلام ، ويصبحون حرباً عليهم وعلى دينهم ، ولم تقف موجة تفكيرهم عند هذا الحد ، بل كانوا يخشون أن يطعن هؤلاء في أصنامهم ودينهم ، وأن يصيبوا آلهتهم فتضعف ثقة الناس سواء في الحبشة ، أو في الأمم ذات الاتصال بهم في الأصنام فتنهار مكانتها في نفوسهم .

ولو لم يحدث هذا أو ذاك فقد كرهوا أن تتزعزع مكانتهم في نفوس الأحباش أو غيرهم ، فيؤثر ذلك على اتصالاتهم التجارية مع هذه البلاد ، وهم قوم

يعيشون على التجارة التي تمثل مركز الثقل في اقتصادياتهم ومجتمعهم .
فوق هذا كله فقد كانوا يرون في استمرار المسلمين في الحبشة ما يزيدهم قوة
فتشتد شوكتهم ويقوى بأسهم ، فإذا عادوا عادوا أقوياء بالمال والرجال ، مما يهين
في عزم قريش ، ويقوض مكانتها ومركزها بين سائر القبائل .
من خلال هذا التفكير رأت قريش أن تشتد في عداوتها ، وأن تقاوم التيار
الجديد ، وأن تأخذ المقاومة لوناً جديداً من العنف والقسوة والبطش ، فبالغت
في الإيذاء برغم أنها كانت تحس بالأرض تتمد تحتها .
وشهدت مكة أحداثاً كان لها شأنها وأهميتها وخطرها .

أولاً - أن أبا طالب دعا قومه بني هاشم للبحث والتشاور في موقف قريش
منه ومن ابن أخيه ، وخاصة بعد ما دار بينه وبين قريش في هذا الشأن من
لقاءات وعروض ، وبعد أن أصبح الموقف من وجهة نظره يتصل اتصالاً وثيقاً
بكرامتهم وعصبيتهم ومكانتهم ، واستقر رأى بني هاشم جميعاً على أن يسندوا
ابنهم ويدودوا عنه ويقفوا صفاً واحداً من ورائه ، يحمونه ويدافعون عنه برغم
أنهم ليسوا على دينه ، وقف بنوهاشم جميعاً يداً واحدة وسنداً قوياً بجانب
الرسول ماعدا عمه أبا لهب الذي خرج على إجماع قومه وشذ عنهم وصمم على
أن يواجه ابن أخيه بالشدة حتى يثوب إلى رشده ، واستمر فعلاً على عداوته
للرسول وموالاته لأعدائه ، لاتحركه مروءة ولاشفقة على ابن أخيه ، ولعله كان
متأثراً إلى حد ما بموقف زوجته .

وسعد أبو طالب بموقف قومه ، وسره إجماعهم ، فجعل يمدحهم ويذكر
ماضيهم ويذكر فضل رسول الله فيهم ومكانته منهم ، وقال في ذلك شعراً منه :

إذا اجتمعت يوماً قريش لفخر فعبد مناف سيرها وصميمها
 وإن حُصِّلَتْ أشراف عيد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
 وإن فخرت يوماً فإنَّ محمداً هو المصطفى من سرّها وكريمها
 تداعت قريش غمها وسمينها علينا فلم تظفر، وطاشت حلومها
 وكنا قديماً لانقِرْ ظُلامةً إذا ماثوا صُغر الخُدود نُقيمها
 ونحى حماها كل يوم كرهة ونضرب عن أحجارها من يرومها
 بنا انتعش العود الدواء وإنما بأكنافنا تندى وتشمى أرومها

وأصبح الموقف في مكة خطيراً ، فقريش في جانب ، وبنو هاشم في الجانب الآخر ، ووضحت العداوة بين الطرفين ، طرف يدافع عن كيانه ووجوده ودينه ، وطرف يدافع عن كرامته وشرفه وابنه ، وكل طرف متمسك برأيه متعنت في موقفه .

ولاشك في أن هذا الموقف كان في صالح رسول الله وفي صالح الدعوة والداخلين فيها ، فقد وجدوا بجانبهم قوة جديدة تسند وتحمي وتدافع وتصد ، ومن خلال هذا الموقف أصبحت الدعوة الإسلامية موضع الحديث والنقاش ، ووضعت مبادئ الدين الجديد أمام أنظار الناس وبين أيديهم ، يرون فيها رأيهم ، وكان لابد من أن نجد الدعوة من يقتنع قلبه وعقله وفكره فيسلم ويصبح قوة جديدة .

وكان اشتداد الإيذاء والاستهزاء بالمسلمين والاستخفاف بالعبادة دافعا لوقوع الحدث الثاني ، فقد التقي أبو جهل برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه

وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، وأسمعه فاحش القول حتى شنى غليل صدره ، ورسول الله يعرض عنه لا يرده ولا يصده ولا يكلمه ، إلا أن مولاة لعبد الله بن جدعان سمعت مادار وشاهدت الاعتداء ، فلما رأت حمزة عم النبي مقبلاً من قنص له متوشحاً سيفه ، قالت له : « يا أبا عارة لو رأيت مالتى ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام ، وجده هاهنا جالساً ، فأذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد » ، فغضب حمزة لما سمع وأخذته الحمية لابن أخيه ، فقصده من فوره المسجد حيث كان أبو جهل جالساً في القوم ، فاتجه نحوه حتى إذا قام على رأسه ضربه بالقوس ، فشجّه شجّة منكّرة وقال له : « أتشتمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ؟ » ، فرد ذلك على أن استطعت ، ولم يرد عليه أبو جهل ، فقد اعترف بأنه قد سبّ محمداً سبّاً قبيحاً ، وأسلم حمزة وأصبح واحداً من هؤلاء الذين يواجهون قريشاً ، وهو أعزّ فتى في قريش ، وأشدّ شكّية ، وهو بطل يحسب حسابه ويُخشى بأسه ، وكانت غضبته على أبي جهل خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين .

والتقى حمزة برسول الله فقال له : « أشهد أنك الصادق ، فأظهر يا بن أخي دينك ، فوالله ما أحب أن لي ما أظلمته السماء وإنّي على ديني الأول » ، وهكذا فقدت قريش واحداً كان يدين بدينهم ، واكتسب المسلمون رجلاً ذا شجاعة وبأس وقوة ، عاهدهم على النصر والتضحية في سبيل الله^(١) .

(١) لم يرد في كتب السيرة تاريخ إسلام حمزة ، وذكر البعض أنه كان قريباً من إسلام عمر ، أى أن إسلام عمر كان بعده بقليل ، وإسلام عمر كان في السنة السادسة من البعثة لأنه كان بعد الهجرة إلى الحبشة .

أما الحدث الثالث فكان إسلام عمر بن الخطاب وقد كانت الهجرة إلى الحبشة سبباً مباشراً لإسلامه ، فعمر كان شديداً على المسلمين لا يجد سبيلاً إلى إيذائهم إلا سلكه ، ولكن كان في طبيعته إدراك صحيح إن ضل أرشده ، وفيه طبع رحيم إن قسا ، فالقسوة كانت تؤذيه كما تؤذى من نزلت به .

كان عمر شديد الأذى والبطش بالمسلمين والغلظة عليهم ، وكان يضمّر للرسول وللإسلام عداوة فيها عنف ، ولكنه كان رقيقاً فوار العاطفة ، ولقد أثرت فيه هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وعز عليه أن يرى نفرًا من قومه يخرجون من بلدهم حيث لا أمان ولا استقرار إلى أرض أخرى بحثًا عن هذا الأمان والاستقرار ، ولا عجب أن يتملكه هذا الشعور بالأسى والألم والضيق ، فقد عُرف عنه أنه ذو نفس حساسة وعاطفة مرهفة .

وكانت مكة قد سادها جو كثيب من الوحشة بعد أن غادرها من غادرها من المهاجرين ، وتركوا فراغاً هائلاً أحس به عمر إحساساً قوياً عميقاً ، وتولته حالة من القلق والضيق وانقباض الصدر ، وأصبح قومه لا يرونه إلا منقبضاً حزيناً .

حدثت أم عبد الله بنت أبي خثعمة زوجة عامر بن ربيعة فقالت : إنا لنرحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته ، إذ أقبل عمر وهو على شيركة ، حتى وقف علىّ ، وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدة ، فقال : أنتطلقون بأمر عبد الله ؟ قلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله ، فقد آذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجاً ، فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة وحزناً . وغضب عمر ، ولكن غضبه كان منصباً على رسول الله ، لأنه من وجهة

نظره هو الذى فرّق أمر قريش وعاب دينها ، وكان سبب هذا البلاء ، فعزم على أن يقتله ، حتى يستريح الناس منه ، وخرج يوماً متوشحاً سيفه ، باحثاً عن رسول الله ليقتله ، فلقىهُ نعيم بن عبد الله وسأله : « أين تريد يا عمر ؟ » ، فقال : « أريد محمداً هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها ، وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله » ، فقال له نعيم : « والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرها ، ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب قد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما » .

وهكذا تدخلت السماء ، وبدأ عمر السير فى طريق الهداية .
اتجه عمر إلى بيت أخته ، وهناك وجدها وزوجها ومعها خبات بن الأرت ، ومعه صحيفة فيها سورة (طه) يُقرئها إياها ، فبطش بختنه سعيد بن زيد ، وضرب أخته فاطمة فشجّها ، واعترفت له أخته : « نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك » ، وشاهد عمر الدم يسيل من وجه أخته ، فتحرّكت العاطفة الرقيقة التى تملأ قلبه وطردت منه الشدّة والغلظة ، ورقّ حتى كان كالماء بعد أن كان هائجاً كالعاصفة وإذا به يطلب من أخته « أعطيني هذه الصحيفة التى سمعتم تقرأون أنظر ما هذا الذى جاء به محمد » ، وكان عمر ينحطو خطوات واثقة على طريق الإيمان ، وكان اطلاعه على الصحيفة هو الخطوة الأولى الجادة التى لحقت بها على الفور خطوات أخرى قادته إلى حيث رسول الله ، لا ليقتله كما كان معتزماً ولكن ليعلن إسلامه ، وليدخل فى

الدين الجديد ، وليكون عضداً وسنداً وقوة للإسلام والمسلمين ، وحرباً على قريش وعداوة لأشرافها .

خرج إليه خباب وكان محتبئاً منذ لحظة دخول عمر البيت ، وقال له : يا عمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته بالأمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، وغادر عمر بيت أخته إلى الصفا حيث رسول الله فدخل عليه وقال : « يا رسول جئت لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله » ، وهكذا أُلِّقَ الحق عن عمر غشاوة الباطل ، واستجاب السماء لدعاء رسول الله .

ولم تصدق قريش نبأ إسلام عمر ، إلا حين سار جميل بن معمر بالنبأ يعلنه على الناس في الأندية وفي مجالس قريش : « يا معشر قريش ، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا » ، وعمر من خلفه يقول : « كذب ، ولكني قد أسلمت ، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ثم توجه عمر إلى منزل خاله أبي جهل وهو يعلم عداوته لرسول الله ، وأخبره بإسلامه ، فانزعج من هول ما سمع ، بضرب الباب في وجهه وهو يقول : « قَبْحَكَ الله ، وقبح ما جئت به » .

وكان المسلمون حتى لحظة إسلام عمر يؤدون صلاتهم في الشعاب ، ولكن عمر أصرَّ بعد إسلامه على أن تؤدي الصلاة في الكعبة تحت سمع القوم وبصرهم ، ووافق المسلمون وأفقَدَ ذلك قريشاً هدوءها واتزانها ووقارها ، قال عبد الله بن مسعود : « إن إسلام عمر كان فتحاً ، ولقد كنا نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه ،

ومازلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب ، وبإسلام عمر تفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم ، وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنها سيمعان رسول الله ، وأنهم سيتصفون بهما من عدوهم ، وكان إسلام حمزة ومن بعده إسلام عمر ابتداء عهد جديد للإسلام ، فقد كان المسلمون مستضعفين يُرمون بالسوء ولا يدفعون السيئة بمثلها ، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ، ولا يقرب فيهم أعداؤهم ذمماً ، ولا مراعاة لحسن جوار أو لمودة أو لقربى ، بل كانوا يسومونهم العذاب. ويريدونهم على الهوان ، من غير أن يتوقعوا دفعاً ، فلما أسلم حمزة ثم عمر ، حلت الكارثة على الشرك ، وتكامل كيان عهد الاعزاز بالإسلام ، واستعلائه بعد استخفافه ، ووقوف المسلمین صفوفاً مجتمعين بعد أن كانوا فرادى متفرقين ، وخرج المسلمون صفين في مقدمة الأول حمزة ، وفي مقدمة الثانى عمر ، واتجهوا إلى الكعبة يصلون فيها مجتمعين ، وتحدوا بجموعهم قريشاً أن تمنعهم ، وهى عاجزة عن قبول التحدى . وأصبح المستقبل غامضاً أمام قريش .

والمسلمون أصبحوا قوة ، وهاهو ذا عمر يقول : « مابق مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هيب ولا خائف » ، وهاهم أولاء يخرجون إلى الكعبة يؤدون صلاتهم ، ويجهرون بالعبادة ، وصوت الحق يرن في جوف المسجد الحرام ، ويمتد صداه ليعم مكة كلها .

لقد آذى الكفار المسلمين فثبتوا ، وتهكوا بهم لما نالوا ، وكلما ازدادوا إيذاء وتهكماً سرى الإيمان في القلوب ، وهاهو ذا النضر بن الحارث يخاطب قريشاً فيقول : « يامعشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بجيلة بعد ، فقد

كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم
أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر
والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن والله ما هو
بكاهن ، لقد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر لا والله
ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون
لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فاهو بخنقه ولاوسوسته ولا تخليطه ،
يامعشر قريش انظروا في شأنكم فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم .

واجتمعت قريش لتفكر في عمل يحفظ لها شرفها وسلطانها ومكانتها ،
وانتهى بهم التفكير إلى قتل رسول الله غير مبالين بأبي طالب وبنبي هاشم ، وبلغ
الأمر أبا طالب فنادى قومه بنى عبد مناف أن يناصروه في منع النبي وحمايته ،
فأجابه بنو المطلب ، وبنو هاشم ، واجتمع على ذلك حسب رواية الزهري
مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعل ذلك حمية ، ومنهم من فعله إيماناً و يقيناً ،
فلما عرفت قريش غيرت خطتها واستبعدت فكرة القتل ، فإذا إذن قررت ؟
قال ابن إسحاق : « فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا
بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر
قد أسلم ، فكان هو وحزمة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه ،
وجعل الإسلام يغشو في القبائل ، واجتمعوا واثتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً
يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ،
ولا يبيعوهم شيئاً ولا يتعاون منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم
تعاهدوا وتوافقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً .

أنفسهم ، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنوهاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه ، واجتمعوا إليه وخرج من بني هاشم أبو لُهب عبد العزى ابن عبد المطلب إلى قريش فظاهرها .

وخرج بنوهاشم مع محمد وأصحابه إلى شعبهم ، حيث قضوا ثلاث سنوات ، عانوا فيها الكثير واشتد بهم البلاء ، وأضناهم الجهد ، ولكنهم أبوا في هذا الموقف الذى تعرف فيه معادن الرجال أن يُعطوا الدنية ، فتحملوا وصبروا بشجاعة وإباء ، أملًا في أن يأتيهم الله بالفرج القريب .

ورب ضارة نافعة ، فالعرب الوافدون على مكة في موسم الحج ، سمعوا بأمر المقاطعة وأخذوا يتساءلون عن هذه الدعوة التى أفقدت قريشاً اتزانها ووقارها ، وألجأتها إلى أن تفرض عقوبة قاسية عنيفة على بنى أبيها ، وأدركوا على الفور أن في هذه الدعوة شيئاً خطيراً تخشاه قريش وتحسب حسابه ، فأخذوا يتتبعون أخبارها ، ويتسقطون أنباءها ويلمون بمناهاجها ، ويسألون عن مبادئها ، ويقفون على أصولها وأهدافها ، وقد أدى هذا إلى ذبوع الدعوة بين العرب ، وهكذا تأتى الرياح بمالاتتهى السفن ، فحين أرادت قريش أن تخفى الدعوة حتى ينساها الناس ، انطلقت أنباؤها من مكة إلى خارجها تدوى في أسمع الناس وآذانهم ، في البدو وفي الحضر .

ظلت المقاطعة ثلاث سنوات متتابة ، عاشها محمد وأهله وأصحابه في شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، يعانون الحرمان ألواناً ، ولم يكن لأحدهم أن يتصل بالناس ، وأن يجتمع بهم وأن يتحدث إليهم إلا في الأشهر الحرم ، ففيها تضع الخصومة أوزارها ، فلا قتل ولا تعذيب ولا عدوان ولا انتقام ، وإذا

كانت المقاطعة قد ضيقت على الرسول وأهله وأصحابه أسباب العيش ، وضيق عليهم في الرزق ، فإنها لم تمنعه عن دعوته ، ولم تحجبه عن رسالته ، فاستمر في دعوته والله تبارك وتعالى يمدده بالعون والتأييد ، فهو وإن كان في وحشة من قومه فهو في أنس من ربه .

وفي الأشهر الحرم كان رسول الله ﷺ يتزل إلى العرب يدعوهم إلى دين الله ويشهرهم بثوابه وينذرهم عذابه ، ومن عجب أن الناس كانوا يلتفون حوله ويستمعون إليه دون خوف من قريش ، وقد أثار مايتعرض له من حصار وحرمان عواطفهم ومشاعرهم ، فالت إليه قلوب الكثيرين حين شعروا بفداحة مايرتكب من ظلم وقسوة في حق محمد وأصحابه ، فتعاطفوا معهم وحملوا الطعام إليهم في الشعب ، فكان هشام بن عمرو يأتي بالبعير يحمل الطعام فيسير به في جوف الليل فإذا استقبل فم الشعب خلج خطامه وضرب على جنبه فيدخل البعير الشعب ، ولقي أبو جهل حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً إلى عمته خديجة في الشعب فنعه واعترضه وقال : « أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة » وانحاز أبو البختري إلى جانب حكيم ، ومنعها أبو جهل ، فأخذلحى بعير فضربه به فشجّه ووطأه ووطأه شديداً .

وحدث خلال الحصار أن أبلغ رسول الله ﷺ عمه أبان طالب أن الله قد سلط على صحيفة قريش الأرضة فأزالت كل ما بها من جور وظلم وقطيعة رحم ، ولم تبق فيها سوى كل ما ذكر به الله ، وخرج أبو طالب بهذه المعلومة إلى قريش ، وقال لهم ما أخبره به ابن أخيه ، وأردف « فإن كان ابن أخي صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم ، وإن كان كاذباً والذي قاله باطلا دفعته إليكم فقتلتموه

أو استحييتموه » ، فأسعدهم هذا العرض ، وتوقعوا أن يكون ماقاله محمد لعمه باطلا ، فيسلمه لهم فينتهى أمر دعوته وقالوا : « رضينا بالذى تقول » ، وجاءوا بالصحيفة فوجدوها كما قال الصادق الأمين ، فنكثوا وقالوا مقالة الكفر : « إن هذا إلا سحر من صاحبكم » ، وقالوا لأبي طالب « هذا سحر ابن أخيك » ، وزادهم ذلك بغياً وعدواناً ،

وجاء يوم كان فيه الخلاص والفرج على يد هشام بن عمرو .
فقد خرج هشام إلى زهير بن أمية (أمه عاتكة بنت عبد المطلب) ، وقال له : « أقدر رضىت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأحوالك حيث علمت لايتاعون ولايتناع منهم ولاينكحون ولاينكح إليهم ، أما وإنى أحلف بالله لوكانوا أحوال أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) ، ثم دعوته إلى مثل مادعاك إليه منهم فما أجابك إليه أبداً » .

ومشى هشام إلى المطعم بن عدى وقال له : « يامطعم أقدر رضىت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق قريش فيه ، أما والله لئن أمكتمتموهم من هذا لتجدنهم إليها منكم سراعاً » .

ثم اتجه إلى أبى البختري بن هشام ، ومن بعده إلى زمعة بن الأسود وقال لهما ماقاله للمطعم بن عدى .

واجتمع الخمسة الكرام وتعاهدوا على الدعوة إلى نقض الصحيفة ، واتجهوا معاً إلى الكعبة حيث خاطب زهير الناس فقال : « ياأهل مكة ، أناأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لايتاعون ولايتناع منهم ، والله لأأقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة » ، فقاطعه أبو جهل : « والله لانتق الطريق إلى يثرب » .

فقال زمعة بن الأسود : « أنت والله أكذب ، مارضينا كتابتها حين كتبت » ، ثم وقف البختری وقال : « صدق زمعة مانرضى بما كتب فيها ولا نقر به » ، ثم أيدهما المطعم فقال : « صدقنا وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها وما كتب فيها » وهاج أبو جهل وقال : « هذا أمر قد قضى بليل ، تشاوروا فيه بغير هذا المكان » ، واضطرب الأمر وكثر القيل والقال ، وقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » ، وحمل الرجال الخمسة ومعهم آخرون السلاح وخرجوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب وأمروهم بالعودة إلى مساكنهم ، وقال ابن سعد في الطبقات : « فلما رأَت قريش ذلك سقط في أيديهم »

كانت فترة الحصار والمقاطعة منبعاً من منابع الخير للدعوة ، فإن الظلم الذى صبته قريش على رسول الله وقومه قد أمال قلوب العرب إلى بنى هاشم وبنى المطلب ، لأنهم صبروا للمحنة صبر الكرام ، واحتملوا كل ما عانوا من عنت وظلم دون أن يسلموا رسول الله إلى أعدائه ، كما لفت أنظارهم إلى هذه الدعوة التى يلاقى محمد وأصحابه فى سبيلها كل هذا العناء ، دون أن يتخلوا عنها أو يتركوها ، وكأن الله قد أراد أن يكون كل ضرر يقع على المسلمين مصدر خير لهم وللدعوة ، ومصدر خسارة لقريش والكافرين .

وفى مكة عاد رسول الله يدعو إلى الدين الجديد ومن حوله أصحابه الميامين . وسارت القافلة على الطريق لايعوقها عائق ، ولا يردها راد ، يحيط بها إيمان عميق وعقيدة راسخة وأمل كبير فى نصر الله .

٩ - وجاءت النصره من السماء

لم تمض شهور على نقض الصحيفة وعودة بنى هاشم والمطلب إلى مكة ، حتى نكب رسول الله والذين معه في عام واحد وفي وقت متقارب بموت أبى طالب وخديجة ، وكان موتها نكبة أشد ماتكون النكبة ، فهزت مشاعر الجميع بقسوة وعنف ، وتركت أقوى النفوس كليلة مضعضة .

مات النصيران اللذان وهبا حياتهما دفاعاً عن محمد رسول الله وأصحابه الذين دخلوا في دينه ، وظلا بجانبه كالطود الشامخ لم تؤثر فيها تهديدات قريش ، وبقي كالسد المنيع تحطمت أمامه كل محاولات قريش ، فأبو طالب أظل رسول الله عليه السلام بحمايته ، وواجه القوة المضادة صلباً صلباً لا يلين ولا يهين ، نصر ابن أخيه وذاد عنه ، وتحمل الأذى في سبيل مرضاته ، وصبر على مضايقة قريش له ، ورضى الملامة من أجل أن يعطى ابن أخيه الحماية ، برغم أنه لم يكن على دينه ولم يستجب لدعوته ، وهو القائل لرسول الله يوم دعاه وقومه إلى وليمة حللها عن رسالته ودينه الجديد ، ثم سأله : « فن يخبني إلى هذا الأمر ، ويؤازرنى على القيام به ؟ » هو القائل : « ما أحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيححتك ، وأشدنا تصديقاً لحديثك ، وهؤلاء بنو أيلك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم إلى ماتحب ، فامض لما أمرت

به . فوالله لأزال أحوطك وأمنعك » .

كان موت أبي طالب مصيبة ، فقد انكشف بموته ظهر رسول الله ويقول عليه السلام في ذلك « مانالت منى قريش في حياة أبي طالب مانالته بعده » لقد ترك موت أبي طالب ورحيله فراغاً لم يملأه أحد من بنى هاشم ، وروى أن عاطفة أبي لهب تحركت نحو ابن أخيه فقال له : « يا محمد ، امض لما أردت وماكنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه ، فلا - واللات - لا يصل إليك شيء حتى أموت » ، ولكن هذه العاطفة مالبثت أن خمدت وراحت وانطفأت ، وعاد أبو لهب - كما كان دائماً - عدواً لله وعدواً لرسوله ، وبذلك خلا الجو لقريش إذ لم تعد تجد من تحسب حسابه أو تخشى غضبه .

وكان موت خديجة مصيبة أيضاً ، فقد كانت سند رسول الله بماتوليته من حبها وبرها ورقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها ، كانت الزوجة الحانية وملاك الرحمة والسكن إذا ادلهمت الأمور ، كان رسول الله يلقى من قريش مايلقاه ثم يعود إلى بيته فيجد الزوجة التي تسمح بأيدي العطف والحب والحنان كل مظاهر الجهد والحزن والأسى ، وتردد على مسامعه دائماً : « والله ، لا يخزيك الله أبداً » ، فتخفف بطيب قوها وعذب حديثها وكرم مواساتها ، ماكان يعانيه من قلق نفسى ، لقد تركت في حياة الرسول فراغاً - وأى فراغ - وغدا البيت بموته موحشاً لأنيس به ولاسمير ، ولم يعد الرسول يجد به القلب الكبير الذى كان يأتيه بهيمومه فيزيلها ، ويشكو إليه فيخفف عنه آلام الشكوى ، لقد فقد الرسول بفقدتها العقل الراجح الذى كان وزيره الصادق في الشدة والرخاء ، وعونه الرءوف على السراء والضراء ، وأشار عليه الصلاة والسلام إلى صدق دورها

فقال : « قد آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وآستنى بما لها إذ حرمني الناس . »

روت كتب السيرة أنه حين دهم المرض أبا طالب ، قالت قريش بعضهم لبعض : « إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعطه منا ، فإننا والله مانأمن أن يبتزونا (يسلبونا) أمرنا ، نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء (أي يقتلون الرسول) ، فتعيرنا العرب ، ويقولون تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه » ، ومشى أشرافهم وفيهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان ، إلى أبي طالب وهو على فراش مرضه ، وقالوا له : « يا أبا طالب ، أنت منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ماترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه ، وخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه » ، ودعى رسول الله إلى حيث عمه والقوم ، وقال له عمه : « يابن أخى ، هؤلاء شيخة قومك وسراتهم ، وقد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال الرسول : « أرايتكم إن أعطيتكم ماسألتهم هل تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » ، فقال أبو جهل : « نعم وأبيك وعشر كلمات » ، فقال : « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ماتعبدون من دونه » ، فسألوه كلمة غيرها ، فقال : « لوجئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ماسألتكم غيرها » ، وتعجب القوم ودهشوا ، فقد خاب أملهم ، وقال بعضهم لبعض : « إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين

آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه » .
ومات أبو طالب .
ومات خديجة .
وفقد الرسول بهما الحامى والسند ..

وسعدت قريش بموتهما ، فقد خلا أمامهم الجو ، وبدأت موجة عاتية من الإرهاب والتعذيب ، قال ابن سعد : « لما توفى أبو طالب وخديجة بنت خويلد وكان بينهما شهر وخمسة أيام ، اجتمعت على رسول الله مصيبتان فلزم بيته ، وأقلّ الخروج ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطعم به » .
واشتدت قريش على رسول الله ﷺ ، ونالت منه الكثير ، كانوا يحثون التراب على رأسه ، فتريله بعض بناته وهى تبكى فيقول لها : « يابنية لاتبكى فإن الله مانع أباك » ، وكان عليه السلام يردد : « مانالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » ، وكان عليه السلام يناجى عمه ويقول :
« ماأسرع ماوجدت فقدك » .

وكان لابد لرسول الله من أن يبحث عن حليف جديد يقف إلى جانبه ويحميه ويرد عنه وعن أصحابه ، فقد بلغ الأمر من الشدة والضيق مداه في نفسه عليه السلام ثقيلاً خانقاً ، وأراد عليه السلام أن يلتمس له متنفساً خارج مكة ، لعله يجد أعواناً على الحق وأنصاراً للخير ، يستمعون له ويستجيبون لدعوته .

ورأى عليه السلام أن يلجأ إلى الطائف بحثاً عن هذا الحليف الجديد الذى ينشده عند ثقيف ، لعلها أن تستجيب إليه وتؤمن به وتمنحه المنعة ، فثقيف لها

من القوة والسلطان والثروة من الثمار والتجارة ما يؤهلها للقيام بهذا الدور ،
وثقيف فوق هذا لها معه عليه السلام صلات رحم ، فقد استرضع عليه السلام
في بادية بنى سعد ، وهى جزء من بادية الطائف ، وأهل الطائف يعتبرون
أخواله من الرضاعة ، فهم بذلك أقرب القبائل رحماً إليه بعد قريش .
ولكن ماكل مايتمنى المرء يدركه .

ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف يطلب النصير ، وعاد منها بشر جواب ،
لقد خاب ظنه وضاع أمله ، وذلك أن ثقيفاً كانت ترتبط بقريش بصلات من
المودة والمنفعة المتبادلة ، وخاصة أنها مصيف أهل مكة لجمال جوها وحلو
أعنائها ، ولهذا فقد حرصت ثقيف أن تظل صلاتها مع قريش قائمة ، وكذلك
حرصت على رضا قريش ، ومن هنا أغلقت الباب فى وجه الوافد إليها من
مكة .

ومن زاوية أخرى فإن ثقيفاً كانت على علم تام بما كان بين محمد وقريش ،
فقد وصلتها أخبار الدعوة وموقف قريش ، وكانت تدرك أن قريشاً بموقفها من
محمد تدافع عن أصنامها ، وبالتالي فإن ثقيفاً خشيت أن تتأثر منزلة اللات -
وهو صنمها الذى تعبدته وتعظمه - بالدعوة إلى الإسلام ، ومن هنا أساءت
لقائه .

لم تستجب ثقيف لدعوة الرسول ، ورفضت بقاءه بينها ، وطالبته بمغادرة
أرضها ، فيئس الرسول من خيرهم .

لقى رسول الله حين وصل الطائف ثلاثة إخوة من أشراف ثقيف هم أبناء
عمرو بن عمير بن عوف (عبد ياليل ومسعود وحبيب) ، وعرض عليهم

دعوته ، وطلب منهم العون والتأييد ، فأساء الثلاثة استقباله ، وردوا عليه في استهزاء وسخرية ، قال أولهم للرسول ﷺ : « ما وجد الله أحداً يرسله غيرك » ، وقال الثاني : « والله لأأكلمك أبداً ، إن كنت رسولا كما تقول فأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك ، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي أن أكلمك » ، أما الثالث فقد قال : « إنه يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسله » .

وأدرك رسول الله ﷺ أنه لا أمل في ثقيف ، وخشى أن يبلغ قومه فشله لديهم ، فبشّروا عليه ، فسألهم أن يكتموا عليه ولا يفشوا ما كان بينه وبينهم « اكتموا علىّ ، ولكنهم كانوا قساة غلاظاً فلم يستجيبوا له وقالوا : « اخرج من بلدنا ، والحق بماشتت من الأرض ، فإننا نخاف على أحداثنا وضعفائنا أن تفتنهم » .

وكما لم تكن ثقيف كريمة في استقباله عليه السلام ، لم تكن أيضاً كريمة عند خروجه ، فقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبون ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، وأخذوا يرشقونه بالحجارة حتى دميت رجلاه وتخضبت نعلاه بالدماء ، وكان ﷺ إذا أزلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذونه بعضديه فيقيمونه ، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون ، ولم يكن معه عليه السلام سوى زيد بن حارثة فجعل يقيه بنفسه حتى شج في رأسه ، وظل السفهاء يتعقبونه وزيداً حتى احتسى منهم بحائط (بستان) لرجلين من قريش هما عتبة وشيبة ابني ربيعة. في هذا المكان والرسول عليه السلام منفرد بنفسه ، وقد جفاه الأهل والعشيرة وأنكروه ، لم يجد أمامه ملجأ يلجأ إليه إلا ربه الذي اصطفاه وكلفه

بالرسالة وأمره بإبلاغ الناس بها ، واقتنع عليه السلام بأنه إذا كان الناس قد تخلوا عنه وأداروا له ظهورهم ، وحرموه الحباية والعون ، فإن ربه تبارك وتعالى لن يتخلى عنه ، وأن الحق وحده قادر على أن يجعل له من هذه الشدة التي يعانها مخرجاً ، ومن هذه المعاناة التي يعيشها فرجاً ، فتطلع إلى السماء بكل الإيمان والصدق واليقين والثقة ، واتجه إلى ربه بكل الأمل والرجاء والخشوع ، ورفع يديه بالدعاء : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وأراد الله تبارك وتعالى أن يخفف عن رسوله عليه السلام ما هو فيه من كرب وهم ، فحرك عاطفة الرحم في ابني ربيعة صاحبي الحائط الذي لجأ إليه الرسول ، فأشفقاً عليه مما أصابه من الإعياء والهوان ، فبعثا إليه بغلام لها نصراني يدعى عداس حاملاً معه قطفاً من العنب ، فلما قدمه الغلام قال رسول الله ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال الغلام : « والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد » ، فسأله رسول الله عن بلده ، فقال : « نصراني من أهل نينوى » ، فقال الرسول : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متى » ، فسأله الغلام « وما يدريك ما يونس بن متى ؟ » ، والله لقد خرجت من نينوى ومافيا عشرة يعرفون ابن متى ، فتي عرفت ابن متى وأنت أمي ومن أمة

أمية ؟ » ، فأجابه الرسول : « ذلك أخى كان نبياً وأنا نبى » ، وفى رواية : « أنا رسول الله ، والله أخبرنى خبره ، وماوقع له مع قومه » ، فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ، وشاهده ابنا ربيعة وهو يفعل ذلك ، فلما عاد قال له : « ويلك يا عداس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه » ، قال لها : « مافى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى » .

ويعلق المرحوم مصطفى صادق الرافعى على هذا الموقف فى « وحى القلم » بقوله : « ياعجباً لرموز القدر فى هذه القصة !! لقد أسرع الخير والكرامة والإجلال فأقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة ، وكان ابنا ربيعة من أعدى أعداء الإسلام ، ومن مشوا إلى أبى طالب عم النبى يسألونه أن يكفه عنهم أو يخلى بينهم وبينه أو ينازلوه حتى يهلك أحد الطرفين ، فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنسانى الذى جاء به الدين ، لأن المستقبل الدينى للفكر لا للغريزة ، وجاءت النصرانية فى أصلاتها تعانق الإسلام وتعزه ، إن الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نسب الأخوة الدم ، ونسب الأديان العقل ، ثم أتم القدر رمزه فى هذه القصة بقطف العنب سائغاً عذباً مملوءاً حلاوة ، فباسم الله كان قطف العنب رمزاً لهذا العنقود الإسلامى العظيم الذى امتلأ حباً ، كل حبة فيه قطرة من الأقطار » .

وفى طريق العودة إلى مكة نزل رسول الله ﷺ بنخلة ، فسأله زيد : « كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك ، وخرجت تستنصر فلم تنصر ؟ » ،

فقال : « يا زيد ، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه ، ولما اقترب من مكة بعث رسول الله يطلب جوار الأخنس بن شريق فرفض » أنا حليف ، والحليف لا يجير » ، وجوار سهيل بن عمرو فرفض « إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب » ، وجوار المطعم بن عدى ، « إنى داخل مكة فى جوارك » ، فوافق ودخل رسول الله مكة وتسلم ابن عدى وأهل بيته ، ودخلوا معه عليه السلام الكعبة وقال المطعم : « يامعشر قريش ، إنى قد أجرت محمداً ، فلا يؤذه أحد منكم » ، وطاف عليه السلام بالبيت وصلى عنده . واستمر رسول الله ﷺ فى دعوة القبائل إلى الدين الجديد ، فكان يعرض نفسه عليهم فى المواسم ، ويدعوهم إلى الحق ، وكان عمه أبو لهب يتبعه أينما ذهب ويحرض الناس ألا يستمعوا إليه ، عن جابر بن عبد الله قال : « رأيت رسول الله ﷺ قبل أن يهاجر إلى المدينة يطوف على الناس يقول : أيها الناس ، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ووراء رجل يقول : أيها الناس ، إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم ، فسألت : من هذا الرجل ؟ فقبل : أبو لهب » ، وقال موسى بن عقبة عن الزهري : « كان رسول الله ﷺ يكلم شريف كل قوم ، لا يسألهم إلا أن يؤوه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، من رضى منكم بالذى أدعو إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه ، وإنما أريد أن تحزرونى فيما يراد لى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى ، وحتى يقضى الله لى ولئن صبحنى بماء شاء ، فلم يقبله أحد منهم ، وقالوا جميعاً : قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه » .

لم يقنع الرسول بعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج ، بل أتى كندة في منازلها وكلباً في منازلها ، وبني حنيفة في منازلها ، وبني عامر بن صعصعة في منازلها ، وردّوه جميعاً ردّاً غير جميل ، وخاصة بنو حنيفة فقد ردّوه ردّاً قبيحاً ، أما بنو عامر فقد اشترطوا إذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده ، فرفض عليه السلام وقال لهم : « إن الأمر إلى الله يضعه حيث شاء » ، وصدق رسول الله فالأمر كله لله ، والله تعالى وحده يملك القوة والقدرة ، وتخضع لمشيئته تعالى كل الأمور ، فإذا شاءت إرادته شيئاً كان .

بعد هذه الرحلة الطويلة التي اتسمت بصبر الرسول الجميل على الدعوة ، ومحاولاته المتصلة الجادة لعرض أمرها على الناس ، وحثه إياهم على قبولها ، وبعد هذه النتيجة التي بلغتها جهوده عليه السلام ، يكون ﷺ قد استنفذ كل أسباب البشر ، ولم يعد أمامه إلا أن يلجأ إلى الله ، يطلب منه النصر ، ويلتمس العون ، ويرجو الحماية ، فالله تعالى لن يضيع عبده ورسوله ، وقد سُدّت أمامه الطرق ، ودعاء الرسول لربه عند حائط ابني ربيعة دعاء فيه مقومات الإيمان واليقين بأن الله الذي أرسله لن يغفله ، وهو دعاء يؤكد بكل الصدق أن رسول الله قد استنفذ كل أسباب البشر ، لأنه لم يجد أينما توجه إلا عدوّاً ، ومادام رسول الله قد استنفذ كل أسباب البشر ، فلا بد من أن تتدخل السماء ، وسمع الله ضراسته ، وأراد أن يؤكد له أنه إذا كان قد أحس بالوحشة بعد وفاة الحبيبين خديجة العطوف ، وأبي طالب الشفيق ، وبعد أن خذله الناس وابتعدوا عنه ، فإن أنس الله أكبر ، ورحمته أعظم ، ورعايته أكرم ، وعنايته به ورسالاته هي التي ستبلغه أمره وتحقق له غايته ، وأرادت السماء أن تؤكد

لِلرَّسُولِ أَنْ جَفَاءَ الْأَرْضَ لَا يَعْنِي أَنْ السَّمَاءَ قَدْ تَحَلَّتْ عَنْهُ ، فَكَانَتْ رَحْلَةً الْإِسْرَاءَ وَالْمَعْرَاجَ تَعْوِضاً عَنْ جَفَاءِ الْأَرْضِ بِحِفَاوَةِ السَّمَاءِ ، وَجَفَاءِ عَالَمِ النَّاسِ بِحِفَاوَةِ عَالَمِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، حَيْثُ يَجِدُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَمِنْ قُدْرَاتِهِ وَمِنْ أَسْرَارِهِ ، مَا يُعْطِيهِ طَاقَةً وَشَحْنَةً ، بِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْصُرَهُ . وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْهُ ، وَالثَّابِتُ إِذَنْ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَرَكَّ رَسُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلًا لِلْأَسْبَابِ لِيَجْتَهِدَ فِيهَا ، فَلَمَّا نَفَدَتِ الْأَسْبَابُ تَدَخَّلَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ ، وَهَذَا دَرَسٌ وَعِبْرَةٌ لِلنَّاسِ -- كُلِّ النَّاسِ -- حَتَّى لَا يَدْعُوا الْأَسْبَابَ ، وَيَتْرَكُوا السَّعْيَ وَالْجِدَّ ، وَيَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَطْلُبُونَ الْعَوْنَ وَالتَّيْيْدَ وَالْفَضْلَ ، فِي أُمُورٍ لَمْ يَبْذُلُوا فِي سَبِيلِهَا وَلَمْ يَسْعُوا لِتَحْقِيقِهَا ^(١) .

وَحَدَّثَ الْإِسْرَاءَ وَالْمَعْرَاجَ كَانَ نَتِيجَةً لِحِفَاوَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ لِرَسُولِ اللَّهِ ، وَنَتِيجَةً لِفَقْدِ النُّصَيْرِ وَالْحَامِي ، فَشَاءَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِرَسُولِهِ هَذِهِ الرِّحْلَةَ الْعُلَوِيَّةَ حَتَّى يَثْبُتَ لَهُ تَكْرِيمُهُ ، وَحَتَّى يَثْبُتَ لَهُ أَنَّ فِي اللَّهِ عَوْضاً عَنْ كُلِّ مَافَاتٍ ، وَحَتَّى يَحْتَنِيَ بِهِ الْمَلَائِكَةُ حِفَاوَةً تَمْسَحُ عَنْهُ عَنَاءَ كُلِّ الْمَتَاعِبِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهَا ، وَتُعْطِيهِ شَحْنَةً قَوِيَّةً جَادَةً تَكُونُ أَدَاتَهُ فِي مَنْطَلَقِهِ الْحَدِيدِ .

وَحَدَّثَ الْإِسْرَاءَ وَالْمَعْرَاجَ كَانَ أَعْظَمَ حَدَثٍ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ، بَلْ فِي حَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا ، فَلَمْ يَقَعْ مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ إِلَّا تِلْكَ الْمَرَّةَ ، فَكَانَ اسْتِضَافَةً مِنْ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِلنَّبِيِّ فِي رَحَابِ مَلَكُوتِهِ حَيْثُ يَشْهَدُ مِنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ وَيَتَزَوَّدُ مِنْ أُلُوفِ اللَّهِ مَا لَمْ يَشْهَدْهُ بَشَرٌ وَمَا لَمْ يَتَزَوَّدْ بِهِ إِنْسَانٌ .

فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ ابْنَةِ عَمِّهِ هَنْدَ بِنَةَ أَبِي طَالِبٍ

(١) مِنْ حَدِيثِ الشَّيْخِ مَتَوًى الشَّعْرَاوِي بِتَصْرِيفٍ .

(وكنيتها أم هانئ) وقد روت ماحدث في هذه الليلة فقالت : « ماأسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي ، نائم عندي تلك الليلة ، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ، ونمنا فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيته بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس ، صليت فيه ، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين ، فقلت له : يا نبي الله ، لا تحدث به الناس فيكذبوك ويؤذوك ، قال : والله لأحدثنهموه ! ! ؟

وقال عبد الله بن مسعود : « أتى رسول الله ﷺ البراق ، وهي الدابة التي كانت يحمل عليها الأنبياء قبله ، تضع حافرها في منتهى طرفها ، فحمل عليها ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد إبراهيم الخليل وموسى وعيسى ونفراً من الأنبياء قد جمعوا له فصلّى بهم » .

ولابن إسحاق تعليق على حدث الإسراء والمعراج بعد أن توفرت لديه مصادر كثيرة تناولت الحدث بالرواية ، مثل عبد الله بن مسعود والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الأزهرى وقتادة ومعاوية والسيدة عائشة ، قال ابن إسحاق في تعليقه : « مااجتمع في هذا الحدث كل ما يحدث عنه بعض ما ذكر من أمره حين أسرى به ﷺ ، وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر الله سبحانه وتعالى في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق ، وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ، فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليُريه من آياته ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره

وسلطانه العظيم وقدرته التي يصنع بها ما يريد » .

ترى ماهو صدى الحدث عند قريش وفي أوساط مكة ؟

تلقت قريش أنباء الحدث بالدهشة وعدم التصديق ، وكذبوا رسول الله وبيته ، وأطلقوا ألسنتهم بقول السوء فيه ، ورأوها فرصة للنيل منه ، قال المطعم ابن عدي : « إن أمرك قبل اليوم كان أمماً (يسيراً) غير قولك اليوم ، وأنا أشهد أنك كاذب » .

وأثارت قريش مناقشات مطولة مع رسول الله تناولت ثلاث نقاط . .
الأولى : خاصة بالزمن الذى قطعه رسول الله في رحلته ذهاباً وعودة ، قالوا : والله إن العير لتطرد (تتابع سيرها دون انقطاع شهراً من مكة إلى الشام وشهراً مقبلة ! ! أیذهب محمد ذلك في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة » ، وفي رواية أخرى : « أتدعى أنك أتيتها في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً » .

ونقطة الزمن هذه كانت أكبر من أن تفهمها عقلیات قريش ، وأعمق من أن يصل إليها تفكيرهم ، ولقد فاتهم أن الزمن في هذا الحدث لا يجب أن يكون موضع نقاش لأن الفعل هنا منسوب إلى الله تبارك وتعالى (سبحانه الذى أسرى بعبد له ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) ، فالله تبارك وتعالى هو الفاعل ، وإذا وقع الفعل من الله وجب على الفور أن يلغى قانون البشر ، لأن كل فعل كما يختلف باختلاف فاعله ، يختلف أيضاً بقوة هذا الفاعل ، ومادام الله هو الذى أسرى برسوله ، والرسول مُصاحَب ومحمول على قانون ربه ، فإن الزمن والمسافة يجب أن تقاسا بنسبة القوة التي فعلت ، تأسيساً على القانون الذى

ينص على أن الزمن يتناسب تناسباً عكسياً مع القوة فكلمة زادت القوة قلّ الزمن ، فإذا قيس الزمن في حادث الإسراء إلى قوة القوى وهى الله ، نجد أن لا زمن لأن الحادث محمول على قانون من لا يتحكم فيه الزمن . ولا شك في أن الذين يدركون شيئاً من طبيعة القدرة الإلهية ومن طبيعة النبوة ، لا يستغربون شيئاً في واقعة الإسراء والمعراج ، فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التى تبدو في نظر الإنسان بالقياس إلى قدرته وإلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة حسب ما اعتاده ورآه ، والمعتقد المرئى في عالم البشر ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله تعالى ، وطبيعة النبوة اتصال بالملأ الأعلى على غير قياس أو عادة لبقية البشر ، والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ الأعلى .

الثانية : سأل المطعم بن عدى رسول الله : « يا محمد ، صف لنا بيت المقدس » ، وقريش تعرف جيداً أمرين ، أولهما أن كثيرين منهم زاروا في الماضي بيت المقدس ، فهم يعرفونه جيداً ويستطيعون أن يحكموا بصدق محمد أو كذبه حين يصفه لهم ، وثانيهما أن رسول الله لم يذهب قط في حياته إلى هناك ، ولهذا توقعوا أن يكون الوصف غير ما يعرفون ، أو يعجز عن الوصف فينكشف أمره ويظهر كذبه ، ووصف لهم رسول الله بيت المقدس ، فوجدوا الوصف صحيحاً دقيقاً ، وأسقط في أيديهم ، ولكنهم ظلوا على ما هم عليه من النفى ، ورفضوا التسليم للرسول ، وقالوا : « إن وصفك لبيت المقدس يحتمل أن تكون حفظته عنم ذهب إليه » .

الثالثة : بعد أن تبين لهم أن وصف بيت المقدس كان صحيحاً ومطابقاً

لما يعرفون ، قالوا : « يامطعم ، دعنا نسأله عما هو أغنى لنا عن بيت المقدس » ، ثم واجهوا الرسول بسؤال جديد : « ما آية ذلك يا محمد ؟ هل رأيت في مسراك وطريقك مانستدل بوجوده على صدقك ؟ » ، فقال لهم رسول الله : « آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا ، فأنفروهم (يعني أن صوت الدابة البراق أنفر عيرهم) ، فندّ لهم بعير (أي شرد) ، فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بمحل كذا مررت بعير فلان ، فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربت مافيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من الثنية يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى براقاء » .

حديث واضح وصریح ، وآيات لاتدع مجالاً للشك أو للتكذيب ، ولكنها قريش ، ترى الدليل واضحاً فتنكره ، وترى الآية صادقة فتكذبها ، لقد أسرع نفر منهم إلى الثنية فلقبهم هناك أول مالقيهم الجمل الأورق عليه الغرارتان ، كما حدث رسول الله ، وسألوا القوم عن الإناء الذي ورد ذكره في رواية الرسول عليه السلام ، وعن نفار العير ، وعن ند البعير ، وعن الشخص الذي دلهم عليه ، فكانت إجاباتهم تطابق كل ما جاء على لسان رسول الله ﷺ .

وأرادت قريش أن يكون لها شيء من الكسب في هذه الجولة ، فانجحت إلى أصحاب رسول الله تشككهم فيه ، وكان اتجاههم أولاً إلى أبي بكر الصديق ، فهم يعرفون مكانته عند رسول الله وبين أصحابه ، فإذا تشكك في أمر من أمور محمد تبعه كثيرون من أتباعه ، وخسر محمد بذلك وفقد أعظم وأقوى وأخطر أعوانه ، كان هذا هو أملهم ومرتباهم ، ولكنهم أصيبوا بصدمة الطريق إلى يثرب

قاسية أخفقوا إخفاقاً ذريعاً ، قالوا لأبي بكر : « هل لك يا أبا بكر في صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة » ، فسألهم أبو بكر : « أو قد قال ذلك ؟ » ، ظناً منه أنهم يكذبون عليه ، فقالوا : « نعم » ، وانتظروا تكديماً من أبي بكر ولكنه فاجأهم : « لئن كان قاله لقد صدق » ، ووضعهم أبو بكر أمام حقيقة ثابتة مؤكدة ، وهى أن الرسول هو الأمين الصادق الذى لم يجربوا عليه كذباً قط ، قالوا لأبي بكر : « تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ » ، قال : « نعم » ، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء فى غدوه وروحه » ، ولما سمع أبو بكر مقالة المطعم بن عدى لرسول الله عاتبه قائلاً : « يا مطعم ، بش ما قلت لابن أخيك ، جهته (أى استقبلته بالمكره) ، وكذبت ، وأنا أشهد أنه صادق » ، ولما بلغ رسول الله مقاله أبو بكر قال له : « يا أبا بكر إن الله تعالى قد سماك الصديق » ، وأبو بكر لم ينظر إلى الخبر فى ذاته ليناقشه بعقله ، ولكنه تكلم عن الخبر وهو رسول الله ، فإذا حدث كان حديثه الصدق كله ، ولا ينبغي لمن آمن بأنه نبي مرسل أن يكذب أو يشك فى شيء مما يقول ، فهو أمين السماء ، ولا يكذب أبداً ، وهذا مبدأ جوهرى يجب أن يسلم به كل من آمن بالله ورسوله لأنه تأكيد لدور العقيدة ، فالعقيدة الصادقة تقبل الخبر على علته ، وخاصة إذا ورد به نص صريح فى القرآن كما ورد النص الخاص بالإسراء ، وحين يعرض القرآن لأمر من الأمور ، فإن العقيدة الصادقة تلزم بقبول هذا الأمر دون مناقشة ، لأن من يكذب مانص عليه القرآن صراحة يعتبر كافراً .

كان الإسراء من مكة إلى بيت المقدس لحكمة أرادها الله تبارك وتعالى ، فقد

جعل المسجد الأقصى معلماً من معالم الإسلام ، يناظر المسجد الحرام ، وفي هذا - كما يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب - ما يصل مشاعر المسلمين بهذين المسجدين ، ويجعلها معاً آيتين من آيات الله في الأرض ، يستظل المسلمون بظلها ، ويقومون على عمارتها ، وتأمين السبل إليها ، وهذا لا يكون إلا إذا كان هذان المسجدان داخل دار الإسلام وتحت يد المسلمين ، الأمر الذي يكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن في إخباره بالغيب ، الذي لم يكن يقع لناظر أحد من المسلمين يوم ذاك ، أو يدور في خيالهم ، وقد مكّن الله للمسلمين من المسجد الأقصى ، ودخل هو وماحوله في دار الإسلام منذ خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

والإسراء كان انتقالا برسول الله عليه السلام من مكة إلى بيت المقدس وقد أكدّه القرآن الكريم صراحة ، أما المعراج فكان انتقالا بالرسول عليه السلام من بيت المقدس إلى السموات ، ولم يرد ذكره في القرآن ، وإن كل ماورد عنه وتفصيله ورد عن طريق السنّة ، فكله مروى عن رسول الله ﷺ .

والسؤال هنا ، لماذا لم يرد حدث المعراج في القرآن كما ورد حدث الإسراء ؟ إن رسول الله حين نوقش في أمر الإسراء استطاع أن يقدم لقومه الدليل المادى على صحته حتى لا يعذروا حين يكذبون ، فإن من بينهم من زار بيت المقدس وشاهده وعرف معالنه وتفصيله ، ويستطيع أن يثبت من صدق وصحة وصف رسول الله لبيت المقدس ، هذا فوق أن الشواهد التي ذكرها رسول الله في طريق الذهاب والعودة ، يمكن التأكد من صحتها بالرجوع إلى القوم الذين كانوا المعالم الرئيسية والشهود الأحياء لهذه الشواهد ، أما أحداث المعراج فإنها

من الأمور التي تقف العقول فيها ، ويُترك أمر تصديقها أو تكذيبها لمدى الإيمان بشخص راويها ، لأن أحداً من القوم لم يعرج به قبلاً ، وبالتالي لم تقع عينه على مارآه رسول الله وشاهده ، ومن ثمّ فإنّ أحداً لا يملك أن يقطع بصدق ما يُروى ، ومن هنا فإنّ من آمن بحدث الإسراء تصديقاً لما تحدث به رسول الله ، آمن أيضاً بأحداث ومشاهد المعراج ، ومن هنا فإنّ العلماء يرون أن من كذّب بحدث الإسراء يكون كافراً ، لأنه كذّب النص القرآني ، وهو واضح وصريح ، أما من كذب بالمعراج ، فيكون فاسقاً فقط ، لأنه لم يرد به نص صريح واضح في القرآن .

بعد حادث الإسراء والمعراج استمرت قريش في عداوتها لرسول الله وأصحابه ، وشدّدت في إهانتهم والاستخفاف بهم ، ولم تعد مكة المكان الملائم لنشر الدعوة .

وأراد الحق تبارك وتعالى أن تكون النصرة من خارج مكة ، فكانت النصرة من أهل يثرب من الأوس والخزرج ، وهؤلاء كانوا يعيشون في يثرب بعد أن وفدوا عليها من اليمن بعد سيل العرم ، وكانوا قوماً آميين لا يقرءون ولا يكتبون ، يعبدون الأصنام كما كان يعبدها سائر العرب ، وكانت تشاركهم الحياة فيها طائفة كبيرة من اليهود من قبائل بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع ، وهؤلاء جاءوها من الشام هرباً من انتقام المسيحيين لما فعلوه بالسيد المسيح .

ورأى اليهود أن هؤلاء العرب يزاحمونهم في ديارهم وينازعونهم ملكهم وسيادتهم ، وخاصة بعد أن اشتدت شوكتهم وازداد سلطانهم ، فلجأوا إلى الحيلة للتفريق والوقعة بينهم ، وتم لهم ما أرادوا ، واستحكمت العداوة وقامت

بينهم حروب طاحنة ، وظلت يثرب مسرحاً للتراع المستمر بين الأوس والخزرج ، ومسرحاً للتنافس الدائم بين اليهود والعرب ، ولما كان اليهود أهل كتاب وعلم ، فقد عرفوا أن نبيّاً أظّل زمانه وآن أوانه ، فكانوا كلما وقع بينهم وبين العرب خلاف قالوا لهم : « إن نبيّاً سيبعث الآن ، قد أظّل زمانه ، تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » ، وكان عرب يثرب كلما سمعوا هذا التهديد من اليهود يترقبون ظهور هذا النبي ، فيسبقون اليهود ، ويؤمنون به ، ويتبعونه ويستنصرونه به عليهم .

وفي موسم حج ، خرجت جماعة محدودة النفر من الخزرج إلى مكة ، فالتقى بهم رسول الله وعرض عليهم دعوته ، فقال بعضهم لبعض : « والله إنه هو النبي الذي توعّدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه » ، فاستمعوا إلى الرسول ، وصدقوا ما يقول وآمنوا به وقالوا : « إنا تركنا قومنا ولاقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك » ، وواعدوه الموسم في العام المقبل ، وعادوا إلى بلدهم والدين الجديد هو مادة حديثهم .

وفي العام المقبل الذي تواعدوا عليه ، وفد إلى مكة وفد من اثني عشر رجلاً ، عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، واجتمعوا مع الرسول ﷺ عند العقبة ، وعرض عليهم الإسلام فبايعوه عليه السلام ، وكانت بيعة العقبة الأولى في السنة الثانية عشرة من البعثة ، وقال عبادة بن الصامت « بايعنا رسول الله ﷺ على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ،

ولا نأتى ببيتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولانعصيه في معروف » .
 وبعث رسول الله معهم عند انصرافهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن
 ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ، وكان نزول مصعب يثرب بداية الخير
 كل الخير ، فقد استضافه أسعد بن زرارة من بنى النجار ، وأقام عنده ، وبدأ
 مباشرة مهمته يعاونه أسعد ، وعلم بأمرهما أسيد بن حضير وهو سيد قومه
 فواجهها قائلاً : « ماجاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا عنا » ، فدعاه مصعب
 إلى أن يسمع قولها ثم يرى رأيه ، ثم حدثه عن الإسلام ، فأعجب بحديثه
 وقال : « ما أحسن هذا وأجله » ، وأسلم ، ثم قال : « إن ورائي رجلاً إن تبعكما
 لم يتخلف عنكما أحد من قومه ، سعد بن معاذ ، وسأرسله إليكما » ، وكان
 اللقاء مع سعد ، وعرض عليه مصعب الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فهش له
 وجهه ، وأسلم ، ثم جمع قومه وقال : « إن كلام رجالكم ونسائكم على حرام
 حتى تؤمنوا بالله ورسوله » ، فأسلم بنو عبد الأشهل .

وفتحت قلوب أهل يثرب للإيمان ، وخرج وفد منهم إلى مكة ، وكان
 لقاءهم مع رسول الله ﷺ سرّاً في شعب العقبة ، وكان العباس بن عبد المطلب
 عم الرسول عليه السلام أول المتحدثين في هذا اللقاء ، وكان قد خرج مع ابن
 أخيه . . وهو مازال على دين آبائه يستوثق له ، فقال : « إن محمداً منا حيث قد
 علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل ما رأينا منه ، فهو في عز من
 قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا أن ينحاز إليكم والحق بكم ، فإن
 كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتوه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم ومانعتم من
 ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن

فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده » ، وتكلم بعد العباس البراء بن معرور فقال : « إنا والله لو كان في أنفسنا غير مانطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله ﷺ ، فتكلم يارسل الله فعخذ لنفسك ولربك ما أحببت فنحن نبأعك » ، وتكلم رسول الله فقال : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقوموا في الله لاتخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم » ، فأخذ البراء بيده الشريفة وقال : « نعم والذي بعثك بالحق ، لمتنعن مما تمنع منه أزرنا ، فبايعنا يارسل الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر » .

وتسأل الهيثم بن التيهان : « يارسل الله ، إن بيننا وبين الرجال (يقصد اليهود) جبالا ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ » فقال عليه الصلاة والسلام : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسلم من سالمتم » .

وطلب الرسول منهم أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيباً : « أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم كفلاء » ، فأخرجوا اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخرج وثلاثة من الأوس ، فقال رسول الله ﷺ : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الخواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي » .

وكان العباس بن عبادۃ آخر المتكلمين فقال : « هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ ، إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنه إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فن الآن فدعوه ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتهم إليه على نهكة المال وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة » ، فقالوا جميعاً : « فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فإنا نأخذ بذلك يارسول الله إن نحن وفينا » ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الجنة » ، فارتاحت نفوسهم وقالوا : « ابسط يدك » ، وباعوه .

وكانت بيعة العقبة الثانية ، وكانت أخطر بيعة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، إذ تطورت الأحداث بعدها تطوراً سريعاً ، ودخل الصراع بين المسلمين وقريش مرحلة هامة وحرجة ، فهذه البيعة انفتحت أمام المسلمين أبواب الرجاء في الغلب ، وتبدلت كروبهم فرجاً وبأسهم أملاً ، وخوفهم أمناً ، أما قريش فقد أذهلتهم أخبار البيعة حين بلغتهم ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وطاشت أحلامهم ، واضطرب تفكيرهم ، وخرجوا يلاحقون القوم ويطلبونهم ، وكادوا أن يفتكوا بسعد بن عباد ، لولا أن أسرع لنجدته جبير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية ، لأنه كان على حد قولها يحير لها تجارتها ويمنعها من أراد ظلمها ببلده .

وأدركت قريش أن سلطانهم يغيب ونفوذهم يأفل ، وأن كفة محمد قد رجحت ، وأنه وأصحابه قد أصبحوا في موضع قوة ، وأن الغد له ولدينه . وتلفت النظر في بيعة العقبة الثانية أمور ذات معنى وقيمة ، ففي هذا اللقاء

كان الحوار صريحاً واضحاً ، يدور في الإطار الموضوعي ، بحرية كاملة امتزجت بالإخلاص لله والوفاء للحق والفناء في الدعوة ، فالعباس بن عبد المطلب يشترط عليهم أن يمتنعوا رسول الله أو يتركوه بين قومه ، والهيثم بن التيهان يسأل في حرية وجرأة ودون خوف عن موقف رسول الله إذا انتصر بهم ، هل يتركهم لليهود ويعود أدرأجه إلى مكة ، وهو بذلك يريد توضيحاً للموقف ، ويحب أن يضع النقطة فوق الحروف ، فيشترط لنفسه وقومه ، ويتلقى من رسول الله الرد الذي كان برداً وسلاماً ، وبصراحة الحوار وصدقه ، يصارحه الرسول بأنه وإن كان مكى المولد والنشأة ، إلا أن الإسلام قد ألغى الحدود ، وتخطى الحواجز ، ولهذا فهو عليه السلام منهم وهم أيضاً منه .

ويتلاحظ أن الإسلام حتى البيعة الثانية كان وحياً يتنزل من السماء ، وتوجيهاً من رسول لا ينطق عن الهوى ، أما بعد البيعة فقد بدأت مرحلة التطبيق الجاد لأحكام الدين ، فكأن الرسالة قد خرجت بالبيعة من مرحلة النظرية البحتة إلى التطبيق العملي ، ومن مرحلة الفكر إلى السلوك .

وهذا سؤال يفرض نفسه :

إذا كانت المقادير قد شاءت أن تكون يثرب دار النصر ، وأن يكون أهلها هم الأنصار ، وأن ينطلق الإسلام منها انطلاقته المتوثبة ، فلماذا لم يكن البعث أصلاً منها ؟

ونحن نسجل الإجابة على هذا السؤال من حديث لفصيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، فقد قال : « إن المدينة لم تأخذ خطرهما في الوجود العربي كما أخذت مكة خطرهما ، فكة بيت الله ، ومشرق نور ميلاد الرسول ، ومطلع

وحى الله عليه ، فيها السيادة المطلقة لقريش على سائر الجزيرة ، فلم يشأ الله تبارك وتعالى أن يجعل الصراخ للدعوة في المدينة أولاً ، وإنما شاء أن يجعله في أذن هؤلاء السادة الذين تتهيبهم العرب جميعاً ، فحين يصرخ الرسول فيهم ليسفه كل مناهجهم وجميع تفكيرهم ، وإنما يكون قد صرخ في أذن السادة ، ولم يكن بمنأى عنهم ولا بغريب ، ولو أن النصره جاءت من مكة لقال قائل إن أهل محمد وعشيرته في مكة تعصبوا لرجل منهم ليسوسوا به الدنيا ، كما ساسوا بمكانتهم العرب ، فشاء الله أن يكون البعث من مكة ، وأن تكون النصره للدين في المدينة ، حتى يستقر في أذن الدنيا جميعها أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصية لمحمد ، ولم تخلق العصية لمحمد إلايمان بمحمد .

وثمة نقطة هامة

إن أصحاب العقبة سألوا رسول الله قبل مبايعته « فإلنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ » وكان رد رسول الله كلمة واحدة فقط ، استمعوا إليها جيداً ، وفهموا مدلولها ، ثم اقتنعوا بها ، وأعلنوا مبايعتهم ، كانت هذه الكلمة هي الجنة .

إن أصحاب العقبة بايعوا رسول الله ، فأخذ عليه السلام لنفسه عهداً ، خلاصته أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأولادهم ، وهم حين أعطوا هذا العهد كانوا مقدرين تماماً لتكاليفه ، فهم سيقفون بدعوة الإسلام أمام القوى المضادة ، يجاهدون أعداءها ويحاربون خصومها ، وربما تكلفوا في سبيل ذلك التضحية بالنفس والمال ، هذا ما أعطاه المبايعون ، أما رسول الله ﷺ فقد أعطاهم في مقابل ذلك وعداً بالجنة ، وهذا الوعد يبين منهج السماء

في وضوح ودقة ، فإن المنهج الإلهي لم يكن يُمنى الناس بغنائم ، أو بشيء من عروض الدنيا ، فالداخل على منهج الله داخل على أنه معطي لا آخذ ، وعلى أنه مضح لا يطلب ثمناً إلا الجنة وهذا المنهج يدخل الداخلون في الإسلام ، وليس في نيتهم أن يطلبوا شيئاً لأنفسهم من زهوة الدنيا ولا متاعها ، اكتفاء بالجنة . وهذه حكمة بالغة ودرس عظيم من دروس الإسلام ، ارتفع بالقوم إلى مرتبة عالية من مراتب السمو الإنساني ، تعلو بهم على المال وعلى الجاه ، وعلى كل ما يتكالب عليه الناس من متاع الحياة الدنيا . ولا يختلف اثنان على أن ما أعطاه الرسول للقوم حين بايعوه هو أعظم وأرفع وأثمن عطاء ، وهل هناك عطاء يرتفع في قيمته إلى مستوى الجنة ؟

١٠ - وكان المستقر وكانت النصرة

باشر مصعب بن عمير مهمته في يثرب كداعية للدين الجديد ، واستجابت له الجموع ، وأقبل عليه الناس يسمعون منه ، ويعلنون إسلامهم على يديه ، وأصبحت يثرب تعج بأصحاب القلوب التي قوى إيمانها بالله ورسوله ، وبأصحاب العقول التي تفتحت وتقبلت عن رضا واقتناع العقيدة الإسلامية الأصيلة ، وازداد عدد الأنصار بعد أن تبين لهم أن الإسلام هو كلمة الحق من ربهم ، وتوفرت في يثرب بيئة إسلامية صالحة ، ساعدت على تكوين طلائع مباركة ميمونة ، كانت درع الإسلام وقوته ، وأصبحت يثرب محط الرحال ، ومطمح الآمال ، وموطن العقيدة ، وأرض الجهاد والنضال .

وبدأ رسول الله يفكر في الانتقال بالدعوة من مكة إلى يثرب ، فأتباعه هناك يتزايدون كل يوم عدداً وسلطاناً ، ويهود المدينة لا يتعرضون لهم بأذى أَوْضَر ، وهي مدينة ذات رخاء يفوق ما بمكة ، فهي منطقة ذات زرع ونخيل وأعناب ، تتوافر فيها وسائل متعددة للكسب ، وأيقن عليه السلام أن مسلمي مكة سيجدون في يثرب عند إخوانهم في الله والدين الأمن الذي افتقدوه في مكة ، ويقول الدكتور محمد حسين هيكل : « إذا كان الإيمان أقوى سند يجعلنا نستعين بكل شيء ، ونضحي عن طيب خاطر في سبيله بالمال والراحة والحرية والحياة ، وإذا كان الأذى من طبعه أن يزيد الإيمان استعاراً ، فإن في استمرار الأذى

والتضحية مايشغل المؤمن عن دقة التأمل التي تزيد في أفق المؤمن سعة ، وفي إدراكه للحق قوة وعمقاً ، وقد أمر محمد الذين اتبعوه من قبل أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية إذ كانت بلاد صدق ، وكان بها ملك لا يُظلم عنده أحد ، فأولى بالمسلمين أن يهاجروا إلى يثرب ، وأن يتقوا بأصحابهم المسلمين فيها ، وأن يتأزروا بذلك على رفع مايمكن أن يصيبهم من شريكون لهم بذلك من الحرية في تأمل دينهم والجمهور به مايفعل إعلاء كلمته » .

بعد أن تمت البيعة الثانية ، اشتدت قریش في عدائها للمسلمين ، فنال هؤلاء منهم من الشتم والأذى ما لم يكونوا يتألمونه ، وجعل البلاء يشتد عليهم ، وصاروا مابين مفتون في دينه ، وبين معذب في أيديهم ، وبين هارب يتوارى عن أنظارهم ، وشكوا إلى رسول الله ، فسمح لهم عليه السلام بالهجرة إلى يثرب ، فقد أخبر عليه السلام بأنها دار هجرته ، وقال لأصحابه : « لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب ، من أراد أن يخرج فليخرج إليها » ، وقال : « إن الله قد جعل لكم إخواناً ودياراً تأمنون بها » .

وكانت الهجرة إلى يثرب .

ولاشك في أن هناك اختلافاً واضحاً بين هجرة المسلمين إلى الحبشة وهجرتهم إلى يثرب ، فالأولى كانت خروجاً من مكة فراراً بدينهم إلى ملك لا يُظلم عنده أحد يجدون عنده الأمان ، أما الهجرة الثانية فكانت خروجاً للتجمع ولخلق قوة جديدة يستعصمون بها بتوفيق من الله تعالى وهدايته ، هذا فضلاً عن أن الهجرة إلى الحبشة لم تأخذ الكثير من تفكير قریش ، ولم ترعجهم برغم المحاولة التي بُدِلت لإعادة الخارجين ، بل كانت هذه الهجرة مثار إشفاق

بعض المشركين كعمر بن الخطاب ، أما الهجرة إلى يثرب فقد أثارهم وأغضبهم ، لأنهم كانوا يدركون أبعادها ويخشون نتائجها ويحسبون حسابها ، لأنها كانت هجرة إلى قوم أهل حرب ، وإن كان ثمة إشفاق فعلى أنفسهم هذه المرة .

كان خروج المسلمين من مكة سراً أو على استخفاء من قريش ، فيما عدا عمر بن الخطاب ، فهو وحده الذى أعلن هجرته ، قال على بن أبى طالب : « ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا محتفياً ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكبّ قوسه ، وانتضى فى يديه سهماً ، واختصر عتزته (حرية صغيرة علقها عند خاصرته) ، ومضى قبل الكعبة ، والملا من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلّى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ، فقال : شأنت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تنكله أمه أو يؤتم ولده أو ترمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى ، فأتبعه أحد » .

وفطنت قريش للأمر فحاولت أن تقطع عليهم الطريق ، وأن تمنعهم ، وأن تردّ كل من استطاعت ردّه لتحتفظ به فى مكة فتفتنه عن دينه أو تعذبه وتنكل به ، وكانت تحول بين الزوج وزوجه وبين الأب وابنه .

وكان أول مهاجر إلى يثرب أبو سلمة عبد الأسد بن هلال^(١) ، وكان قد هاجر إليها قبل بيعة العقبة ، وهو ممن هاجروا إلى الحبشة ، فلما عاد إلى مكة آذته قريش ، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، فخرج إلى يثرب مهاجراً ومعه

(١) اسمه عبد الله وهو من بنى مخروم .

امراته وابنه ، فاعترض بنو المغيرة (قوم امرأته) طريقهم ومنعوا امرأته من الخروج معه ، « يا أبا سلمة قد غلبتنا على نفسك ، فصاحبتنا هذه علام نترك تسير بها في البلاد » ، وحبسوها لديهم ، ثم اعترضه قومه بنو عبد الأسد ووضعوا أيديهم على ابنه واحتفظوا به لديهم ، وهكذا فرقوا بين الرجل وزوجه ، وبينه وبين ابنه ، وعبرت الزوجة عن مصيبتها فقالت : « ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة » ، وظلت عند أهلها حتى توسط لها ابن عم لها فقال لقومه : « أما ترحمون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين ولدها وزوجها » ، فسمحوا لها باللاحاق بزوجها ، ورد إليها بنو عبد الأسد ولدها فخرجت به إلى يثرب .

وعندما قرر صهيب بن سنان الهجرة ، اعترض طريقه كفار قريش وقالوا له : « أتيتنا صعلوكا حقيراً ، فكثرت مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك أبداً » ، فقال لهم : « رأيتم إن جعلت لكم مالى أنأخذون سبيلي ؟ » ، قالوا : « نعم » ، فقال : « فإني جعلت لكم مالى » .

وخرج عياش بن أبي ربيعة فلحق به أبو جهل والحارث بن هشام واحتالا عليه فقالا إن أمه قد نذرت ألا تغسل رأسها ولا تستظل من شمس حتى تراه ، ولأنأكل ولا تشرب ولا تدخل مسكناً حتى يرجع إليها ، ثم أثارا عاطفته نحو أمه فقالا : « أنت أحب ولد أمك إليها ، وأنت في دين منه بر الوالدين ، فارجع إلى مكة فاعبد ربك كما تعبد بالمدينة » ، فصدقها ورق قلبه ، وفي طريق العودة أوثقاه بالحبال وجلداه نحواً من مائة جلدة ثم دخلا به مكة وقالا :

« يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهاثكم كما فعلنا بسفينا . »

ولم تمنع محاولات قريش المسلمين من الهجرة ، فهاجر من استطاع حتى خلت من مكة ديارها ، ولم يبق بها إلا رسول الله وأبو بكر وعلى والمستضعفون من المسلمين ، وأراد أبو بكر أن يخرج ، فاستأذن رسول الله فقال له : « لاتعجل ، لعل الله يجعل لك صاحباً » ، فأدرك أن الرسول في انتظار الإذن له في الهجرة ، فاشتري راحلتين واحتبسها في داره ، وجعل يعلفها ويعدهما ليوم قادم قريب .

ولم يكن موقف رسول الله ﷺ واضحاً في نظر قريش ، هل سيهاجر ويلحق بأصحابه ، أم سيبقى في مكة ، لقد أذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة وبقى هو في مكة ، وبرغم عدم وضوح الرؤية أمامهم ، فإنهم كانوا يخشون أن يقدم على هذه الخطوة ويترك مكة إلى يثرب .

وفي دار الندوة ناقش كفار قريش موقفهم من محمد ، وطرح أبو البختري ابن هشام رأياً « احبسوه في الحديد ، واغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابعة ، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم » ، واعترض البعض على هذا الرأي « ما هذا لكم برأى ، ولئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلا وشكوا أن يشوا عليكم ليتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى فانظروا في غيره . »

وجاءهم رأى جديد « نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرج عنا فوالله مانبألى أين يذهب ولا حيث وقع ، وإن غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا

أمرنا وألفتنا كما كانت » ، وجاء الاعتراض على هذا الرأي مقنعاً لهم : « لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، فوالله لو فعلتم ، ماأمنتم أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يبطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ماأراد ، فروا فيه رأيا غير هذا » .

ثم جاء القول الفصل على لسان أبي جهل بن هشام : « والله إن لى فيه رأياً ، ماأراكم وقعتم عليه بعد ، أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل واحد منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضوا منه بالعقل فعملناه لهم » ، وأعجبهم الرأي واستحسنوه ، وقالوا : « هذا الرأي الذى لا رأى غيره » .

إذن لم يعد أمام قريش إلا أن يتخلصوا من رسول الله بقتله ، وقد استراح الجميع لرأى أبي جهل ، وهو رجل يحمل لمحمد كل شر وسوء ، وكان رأيه قمة التصعيد للشر ، فدبروا أمرهم ، ونسوا أن السماء كانت قد أعدت عدتها لتفسد مااستقر عليه رأيهم ، والتقى قرار السماء بقرار الأرض على أمر قد قُدر ، فقد أوحى الله إلى نبيه ورسوله بالهجرة ، وأذن له فيها ، وجاء جبريل بأمر السماء وقرارها ، « يا محمد ، لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه » . ونشر الظلام أرديته ، وآوى الناس إلى مضاجعهم ، فلما جن الليل خرج

جمع من قريش على رأسه أمية بن خلف وأبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث ، إلى بيت رسول الله ، والتفوا حولها ، والسيوف تلمع في أيديهم ، والأمل يداعب نفوسهم فقد حانت اللحظة الحاسمة في تاريخ الصراع .

واستدعى رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ، وأمره أن ينام على فراشه ويتشج ببرده الأخضر ، وأن يتخلف عنه في الهجرة حتى يؤدي ما كان عنده عليه السلام من ودائع إلى أصحابها : « ثم على فراشي ، واتشج بردائي هذا الحضرمي ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » .

وبينا الجمع مجتمع حول الدار قال لهم أبو جهل : « إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحترقون فيها » وسمعه رسول الله فقال : « نعم ، أنا أقول ذلك » .

وخرج رسول الله من بيته وأخذ حفنة من تراب ، نثرها على رؤوس القوم ، وهويتلو آيات من سورة يس ، وكأنه عليه السلام قد أراد بهذ الحفنة من التراب أن تبقى على رؤوسهم دليلاً مادياً يسخر من قريش لغرورهم إذ حسبوا أنهم بائتمامهم يحققون رغبتهم ويشفون ما يجدون في صدورهم .

واتجه رسول الله إلى بيت أبي بكر في وقت لم يتعوذه أهل البيت أن يأتيهم فيه ، فعن عائشة أنها قالت : « كان لا يخطئ رسول الله أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار ، إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه

لرسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرى قومه ، أتنا رسول الله بالمهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها ، فلما رآه أبو بكر قال : ماجاء رسول الله في هذه الساعة إلا لأمر حدث .

وفي بيت أبي بكر أفصح رسول الله عن سبب مجيئه قائلاً : « إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة » ، فسأله أبو بكر الصعبة ، ووافق الرسول ، وغمرت الفرحة أبا بكر ولم يطق أن يخفيها حتى إنه بكى ، عن السيدة عائشة قالت : « فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي » ، وقال أبو بكر : « يانبي الله ، إن هاتين راحلتان كنت أعددتها لهذا ، فخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين » ، فقال رسول الله : « بالهن » ، لأنه عليه السلام أراد أن تكون هجرته إلى الله تعالى من ماله الخاص ، فهذه رحلة مباركة تتطلب البذل ، والبذل في هذا المجال عبادة رفيعة ، ولا يفهم من ذلك أن رسول الله كان رافضاً لأموال أبي بكر ، فكم أنفق أبو بكر منذ أسلم وقد قال رسول الله في ذلك : « ما أحد أمنّ علىّ في صبحته وذات يده من أبي بكر ، وما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر » .

وخرج رسول الله ورفيقه أبو بكر ليلاً إلى غار ثور ، تحميم السماء وترعاه ، وأبو بكر يمشي تارة خلفه وتارة أمامه ، فسأله الرسول عن ذلك فقال : « يا رسول الله ، أذكر الطلب فأمشي خلفك ، وأذكر الرصد فأمشي من أمامك » ، ولما بلغا الغار دخله أبو بكر أولاً ليطمئن على سلامة المكان قبل أن يدخله رسول الله ، والذي بعثك بالحق لا تدخل حتى أدخله قبلك ، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك » ، وفي هذا الغار الغارق في الصمت والوحشة ثوى

الرجلان ثلاثة أيام ، وكان هذا الغار هو المقر الأمين الذى استودعته السماء
مصير الرسالة الخاتمة ومستقبل الدعوة الكريمة .

وظل الرسول وصاحبه فى الغار ثلاث ليال ، يتسقطان أخبار القوم ويرقبان
ما يكون من حاظهم ، وكان يتولى الإبلأغ بالمعلومات عبد الله بن أبى بكر ، وهو
غلام حاذق ماهر سريع الفهم ، فكان يقضى نهاره بمكة مع قريش يسمع
مأثوراتهم به ، وما يردده القوم فى مجتمعاتهم ومجالسهم من أحاديث عن الرسول
ورفيقه ، ثم ينطلق فى السماء بالحصيلة ، ويأتى الغار ويخبرهما بالأخبار .

وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يرعى غنمه فى رعيان أهل مكة ، فإذا
أمسى أراح عليها الأغنام ليحتلبا ويدبجا ، كما كان يعنى بأغنامه على آثار عبد الله
ابن أبى بكر حتى لا تظهر وينفضح أمر رسول الله ورفيقه ، وكان يفعل ذلك فى
كل ليلة من ليالى الغار الثلاث بتوجيه وإرشاد أبى بكر .

أما أسماء بنت أبى بكر فكان لها خلال هذه المدة على قصرها دور كبير جليل
وخطير ، فقد تولت مهمة إمداد الرسول ورفيقه بما يصلحها من الطعام
والشراب .

وتمت عملية تمويه على مدخل الغار ، لترد الطلب عن رسول الله
وصاحبه ، فما إن دخل رسول الله ورفيقه الغار حتى نبتت فى وجهه شجرة يقال
لها العشار ، فسترته بفروعها ، وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين فروع الشجرة
نسجاً متراكماً بعضه على بعض كنسج أربع سنين ، ثم أمر الله حامتين وحشيتين
فوقفتا بفم الغار وباضتا .

أما المتآمرون المجتمعون حول بيت رسول الله فقد روى الإمام أحمد :

« وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ ، وبينما هم بالباب أتاهم آت فرآهم على ما هم عليه ، فسألهم : ماتتظرون هاهنا ؟ ، فقالوا : محمد ، فقال خبيكم الله ، والله خرج محمد عليكم ، ثم ماترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفهاترون ما بكم ؟ » فوضع كل يده على رأسه فإذا عليه تراب ، فأسرعوا يقتحمون الدار فإذا بعلى على فراش الرسول ، فهاجوا عليه وسألوه : « أين صاحبك ؟ » ، فقال : « لأأدرى » ، فقالوا : « والله لقد صدقنا الذى كان حدثنا » ، واتجهوا على الفور إلى بيت أبى بكر فلم يجدوا به سوى بناته ، فسألوا أسماء : « أين أبوك ؟ » ، فقالت : « لأأدرى والله أين أبى » ، فلطمها أبو جهل لطمه طرحت منها قرطها .

وخرج القوم ، من كل بطن رجل ، يبحثون عن رسول الله ورفيقه فى كل الأنحاء ، ووصل نفر منهم إلى الغار ، فوجدوا نسج العنكبوت والشجرة والحمامتين ، وأيقنوا أن أحداً لم يدخل الغار مع وجود هذه الآيات الحسية التى هى دون شك من الخوارق ، ولقد حاول بعض النفر أن يتسلقوا إلى الغار ، ثم عاد أحدهم فسأله أصحابه : « مالك لم تنظر فى الغار ؟ » فقال : « إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد ، وقد رأيت حمامتين وحشيتين بضم الغار فعرفت أنه ليس أحد فيه » .

وسمع أبو بكر ديبب أقدامهم إزاءه فأمسك أنفاسه ، وبقى لاهرك به ، وأسلم أمره لله ، وقال فى لهجة خافتة : « يارسول الله ، لو نظر أحدهم تحت أقدامه لرآنا » ، فقال له الرسول وقد امتلأ ثقة بربه : « ياأبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ، لاتخزن إن الله معنا » .

واقنع المشركون بأن ليس أحد في الغار فتنادوا للعودة ، إلا أنهم خلال الليالي الثلاث التالية ظلوا يبحثون وينقبون ليلاً ونهاراً في كل موضع ومكان ، وأرسلوا خبراءهم يلتمسون آثار رسول الله ورفيقه ، ثم يسوا من العثور عليهما ، وأيقنوا أنها قد أفلتا ، فأوقفوا البحث وكفوا عنه ، ولكنهم أعلنوا عن جائزة قدرها مائة ناقة لمن يأتيهم برسول الله ﷺ أسيراً أو قتيلاً .

بعد انقضاء الأيام الثلاثة وصل إلى الغار عبد الله بن أريقط ومعه الراحلتان اللتان كان أبو بكر قد أعدهما للرحلة ، وعبد الله هو دليلهما في الرحلة وكان مشركاً ولكنه كان أميناً عليهما . .
وبدأت رحلة التاريخ .

واختار عبد الله طريقاً غير مألف الناس ، وهو طريق الساحل ، فأمعن إلى السير في الجنوب أسفل مكة ، ثم اتجه إلى تهامة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر ، ثم اتجه شمالاً محاذياً الشاطئ مبتعداً قليلاً عنه ، وكان اختيار الطريق اختياراً موفقاً لأنه لا يمكن أن يخطر على بال قريش أن الركب يسلك هذا الطريق ، وقال ابن سعد في الطبقات : « إن عبد الله بن أريقط أخذ بهم في السير وهو يرتجز ، ولعل هذا كان نوعاً من التضييل أريد به ألا يفتن أحد من القوم إليهم ، فإن الذي يرتجز ويعلن عن نفسه في السير لا يمكن أن يكون هارباً ، وقد استمروا يسرون طوال ليلتهم وشطراً من النهار حتى تعبوا » .
وحين تهبأ الركب للسير ، وأخذ وجهته إلى يثرب ، نظر رسول الله إلى مكة نظرة وداع حارة وقال : « والله إنك لأحب أرض الله إليّ » ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أنخرجوني منك قهراً ماخرجت » ، وعن أبي هريرة

قال : « وعندما بلغ الركب الجحفة اشتاق رسول الله إلى مكة ، فأنزل الله تعالى قوله الكريم : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) .

وأَمْضَى الركب الميمون يلفحه حر الهجير ، والرسول وصحبه لا يعبتون بمشقة ولا يشعرون بتعب ، تهوّن عليهم عناية الله الصعب ، وتذلل العسير ، وتدنى القصيّ ورسول الله يدعو ربه : « الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئاً ، اللهم أعني على هول الدنيا وبوائق الدهر ، ومصائب الليالي والأيام ، اللهم اصحبني في سفرى واخلفني في أهلى وبارك فيما رزقتنى . . » وبهذا الدعاء وغيره كان رسول الله يحمد الأنس بربه في تلك الرحلة القاسية .

وخلال الرحلة طلب رسول الله من أبي بكر أن يشغل الناس عنه ، وأن يتكفل هو بالجواب حتى لا يضطر إلى قول ما يخالف الحقيقة وما ينبغي لنبي أن يكذب ، فكان أبو بكر إذا سُئِلَ : « من هذا الذى معك ؟ » ، يقول : « هذا الرجل يهدينى الطريق » ، ولعل الناس لم تسأل عن شخصية أبي بكر لأنه كان معروفاً لديهم ، لأنه كان يكثر المرور عليهم في التجارة للشام ، وذكرت بعض الروايات أنه سئل : « من أنت ؟ » ، فكان يقول : « باغى حاجة » .

كانت قريش قد جعلت مائة ناقة لمن يأتيها برسول الله أسيراً أو قتيلاً ، وأعلنت ذلك للناس كافة في مكة ، فأغرى ذلك بعض السفهاء ذوى المطامع ، فخرجوا بحثاً عن رسول الله ، طمعاً في المائة ناقة ، وكان من هؤلاء سارقة بن مالك بن جُعشم ، فبينما هو مع قومه بنى مدلج بقديد (محل قريب من رابغ) جاء رجل فحدثه : « ياسارقة إني رأيت أسودة (أى أشخاصاً بالساحل) ، أراه ، محمداً وأصحابه » ، فكذبه سارقة وضلله حتى يظفر

بالمكافأة التي رصدتها قريش ، ثم مكث مع القوم قليلا ، ثم ذهب إلى بيته فلبس سلاحه ، وأمر أن يُرسل فرسه إلى بطن الوادي ، حتى لا يراه أحد وهو يندفع في إثر محمد وصحبه ، ولندع الحديث لسراقة ، قال : « فعرفت أنهم هم فقلت ! إنهم ليسوا هم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا (أى بمعرفتنا) يطلبون ضالة لهم ، وأومأت إليه أن اسكت ، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت إلى منزلي ، فأمرت جاريقي أن تخرج فرسي خفية إلى بطن الوادي وتحبسها عليّ ، وأخذت رمحي ، وخرجت به من ظهر البيت حتى أتيت فرسي ، فركبتها ، فدفعتها ، ففرت بي حتى دنوت منهم فعثرت فرسي ، فخررت عنها فقممت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزام فاستقسمت بها أضرهم أم لا ؟ ، فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي وعصيت الأزام ، فجعل فرسي يُقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذ لأثر من يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزام فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرسي حتى جثتهم ووقع في نفسي حين لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت الزاد والمتاع ، فلم يرداني ولم يسألاني إلا أن قالوا : اخف عنا ، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من آدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ .

باءت محاولة سراقه بالفشل ، ولكنها أكدت أن الحق تبارك وتعالى أعطى نبيه الأمان والأمن والنصرة ، وآية ذلك أن سراقه خرج أملاً في إعادتها لاعتنق يقين واقتناع ، وإنما طمعاً في مكافأة قريش ، فهو إذن قد خرج لأمر دنيوي لا يتصل بالدين أو العقيدة ، ولقد أدرك أن هناك قوة تحمي الركب حين منعت السماء فرسه من ملاحقة القوم فقد كبت به مرتين ، وساخت يداها في كل مرة في الأرض حتى وصلت في المرة الأولى إلى بطنها ، وفي المرة الثانية إلى ما هو زائد على ذلك وكذلك أيقن أن رسول الله ﷺ سيظهر ، فقد خرجت الألام في كل مرة بما يكره ، ولعله اقتنع بعد كل هذه الآيات بصدق الدعوة ، فقد طلب كتاباً من الرسول ، فلما أعطاه إياه احتفظ به حتى فرغ رسول الله من حنين والطائف ، فجاهه بالكتاب ، فقال له الرسول : « هذا يوم وفاء وبر » ، وأسلم سراقه وقتها وحسن إسلامه .

هذا فوق أن سراقه حين كان قريباً من الركب وعرض على النبي وصحبه الزاد والمتاع قالوا له : « لاحاجة لنا بذلك ولكن عَمَّ عنا الطلب » (أى اصرف عنا الناس ولا تخبرهم) ، فاستجاب على الفور وقال : « لأأريكم ولا يجيئكم منى شيء تكرهونه » ، وهكذا أعطى سراقه العهد على نفسه ، فلما رجع ووجد الناس جادين في البحث جعل يُخلد عنها ، ويقول لكل من لقيه : « قد كُفِّت هذا الوجه » ، ليصرفهم ، وهكذا تحول سراقه من فارس مطارد إلى حارس أمين يضلل من يطارد المهاجر العظيم ، بعد أن كان هو يطارده ، والدليل الواضح على ذلك أنه بعد أن عاد إلى مكة اجتمع عليه الناس ، فأنكر أنه رأى محمداً وما زال أبو جهل به ، حتى اعترف وأخبرهم بما حدث ، ولكنه

أهسى حديثه بقوله مخاطباً أبا جهل ..
أبا حكم والله لو كنت شاهداً لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشك بأن محمداً رسول ببرهان فمن ذا مقاومه ؟

وانطلق الركب إلى غايته فى منطقة صحراوية ، حرها محرق ، وقبظها
ملتب ، وهم مستسلمون لقضاء الله مؤمنون بأنه لا يجرى إلا بخير ، وكانوا كلما
أرهقهم السير نزلوا فاستراحوا والتمسوا طعاماً أو شرباً من الحى الذى نزلوا به ،
روى البيهقى قال : « لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه
مستخفين ، مرا بعد يرعى غنماً فاستسقىاه اللبن فقال ماعندى شاة تحلب غير
أن هناك عناقاً حملت أول الشتاء ، وقد أضربت (أى نزل ولدها قبل
أوانه) ، ومابقى لها من لبن ، فقال عليه السلام : ادع بها ، فدعا بها ،
فاعتقلها النبي ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت ، وجاء أبو بكر بوعاء فحلب ،
فسقى عليه السلام أبا بكر ، ثم حلب فسقى الراعى ، ثم حلب فشرب ﷺ ،
أخذ العجب الراعى ، فقال : من أنت فوالله مارأيت مثلك قط ، قال عليه
السلام : وتراك تكتم علىّ حتى أخبرك ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « فإنى
محمد رسول الله ، فقال الراعى : « أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء » ، قال :
« إنهم ليقولون ذلك ، قال : « فإنى أشهد أنك نبي ، وأشهد أن ماجئت به
حق ، وأنه لايفعل ما فعلت إلا نبي ، وأنا متبعك » .

ومر الركب بامرأة أعرابية كريمة هى أم معبد ، كانت تجلس أمام خيمتها
مجلس الرجال ، تطعم وتسقى من يمر بها ، فلما نزلوا عندها سألوها طعاماً أو شرباً

يشترتون منه ، فلم يصيبوا عندها شيئاً وقالت : « والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى وما كنتم إذن بحاجة إلى أن تسألوا شيئاً أو تدفعوا ثمناً » فنظر رسول الله فوجد عندها شاة ، فسألها عنها : « ماهذه الشاة يأم معبد ؟ » ، فقالت : « هذه شاة خلّفها الجهد عن الغنم » ، فاستأذنها رسول الله في أن يحلبها : « أتأذنين لي أن أحلبها » ، فقبلت : « نعم ، بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً » ، فدعا الرسول بالشاة ومسح ضرعها وذكر اسم الله وقال : « اللهم بارك لها في شاتها » ، وإذا بالشاة تفتح مابين أرجلها ، ودرت باللبن ، فشرب رسول الله ، وشرب من معه ، وشربت أم معبد ، وبقي من اللبن الكثير ، ثم غادر الركب منزل أم معبد ، وماهى إلا فترة قصيرة وحضر زوجها ، فرأى اللبن فعجب وتساءل « من أين لكم هذا والشاة عازية ولا حلوبة في البيت ؟ » ، وروت له أم معبد ما حدث : « لا والله ، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت » ، فقال : « والله إني لأراه صاحب قريش الذى يُطلب صفيه لي يأم معبد » ، ووصفت له أم معبد رسول الله ، وحديثه عن طلعتة وهيئته ووقاره وعذوبة حديثه وسماحة نفسه وطلاقة وجهه وجلال مظهره ، فلم يتألك الرجل نفسه وقال لها : « هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يأم معبد لالتست أن أصعبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً » .

هذه المرأة التقية رأت حين نزل بها رسول الله صورة من خوارق العادات ، وعرفت من زوجها أن الذى نزل هو رسول الله الذى وصلت إليهم - كما وصلت كل العرب - أخباره ، هذه المرأة وفد عليها بعض من فتية قريش بعد انصراف

رسول الله وسألوها عنه وفهمت أنهم يبحثون عنه ليردّوه إلى أهلهم ، وتكون لهم الجائزة المعلنة ، فأبت أن تجبر عنه أو ترشدهم إليه وتظاهرت بأنها تجهل مايسألونها عنه ، وقالت لهم : « إنكم تسألون عن شيء ماسمعت به قبل عامي هذا » ، أليس هذا دليلاً على أن السماء تتابع خطوات رسول الله وتحميه في كل موقف وتحرسه من كل سوء .

كان خبر خروج الرسول من مكة قد انتشر وذاع ووصل أهل المدينة فكانوا يتحرقون شوقاً إلى لقائه ، وكانوا يخرجون كل صباح يترقبونه ، روى ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : « حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله من مكة ، وتوكفنا (توقعنا) قدومه ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله ﷺ ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإن لم نجد ظلاً دخلنا وذلك في أيام حارة » .

ووصل رسول الله إلى قباء ، ففضى بها أربعة أيام ، وكان أول عمل قام به أن أسس بها مسجداً كان أول مسجد في الإسلام ، وصفه الله تعالى بأنه المسجد الذي أسس على التقوى ، وإقامة هذا المسجد كان توجيهاً عملياً من الرسول إلى المسلمين ، ليكون أول مايعنون به هو المسجد ، الذي يربطهم بالله رباً وثيقاً ، ويجمعهم على التقوى ووحدة العقيدة ، ويوثق صلتهم بالدين حين يؤديون فيه الصلاة ، ولقد شارك الرسول في البناء ، فكان يحمل الحجارة حتى يبدو عليه الجهد ، ف يرغب أصحابه أن يكفوه فيرفض ، وظل يشاركونهم العمل ويسهم في إقامة أول بيت لله سبحانه يُعبد فيه وثقام فيه شعائر دينية ، قالت الشموس بنت

النعمان : « نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم فترل وأسس المسجد ، فرأيت
يأخذ الحجر والصخرة حتى يصهره الحجر ، فيأتي الرجل من أصحابه فيقول :
يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، تعطيني أكفك ، فيقول له : لا أخذ مثله ، حتى
أسسه » .

وفي قباء التقى عليّ بن أبي طالب برسول الله بعد أن مكث في مكة ثلاث
ليال يؤدي فيها الودائع التي كانت للناس عند رسول الله ، عن عبد الله بن أبي
رافع عن عليّ قال : « لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة في الهجرة أمرني أن
أقيم بعده حتى أؤدي ودائع كانت عنده للناس ، ولذا كان يسمى الأمين ،
فأقمت ثلاثاً فكنت أظهر ماتغييت يوماً واحداً ، ثم خرجت فجعلت أتبع طريق
رسول الله ﷺ ، حتى قدمت بنى عمرو بن عوف ، ورسول الله ﷺ مقيم ،
فتزلت على كلثوم بن الهدم » .

وتحرك الركب مرة ثانية إلى يثرب التي كانت تعيش أفرأحاً متصلة وقد
أشرقت بالبهجة والسرور ، ولبس الناس أحسن ملابسهم ، ووقفت النسوة على
سطوح المنازل يستشرفن رسول الله ، وأخذت الإماء والجواري ينشدن ويغنين
ويضرين بالدفوف ، والصبية يهللون ويصيحون في سعادة غامرة .

كان أهل المدينة يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد يرقبون
بالشوق الكبير والحب العظيم مقدم الرسول الحبيب ، وذات صباح صعد رجل
يهودي على أكمة عالية ، فإذا به يرى رسول الله وصاحبه من خلال الأفق
البعيد ، يقتربون رويداً رويداً ، فصاح اليهودي بأعلى صوته : « يا بني قيلة ،
هذا صاحبكم قد جاء » .

وأشرق نوره عليه الصلاة والسلام ، فهلل الناس وكبروا وسرى السرور إلى القلوب ، قال البراء : « مارأيت أهل المدينة فرحين بشيء فرحهم برسول الله ﷺ » ، وعن أنس بن مالك قال : « لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضواء فيها كل شيء » .

كان رسول الله حين خرج من مكة قد ناشد ربه قائلاً : « اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إلى فأسكني أحب البقاع إليك » .

واستجاب الله ، وأسكن رسوله ﷺ يثرب ، وخرج جميع أهلها يستقبلونه فرحين مستبشرين وهم ينشدون أغانيهم الحلوة الجميلة الخالدة :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وفي يثرب . ، المدينة المنورة . . كان المستقر وكانت النصره .

الفهرس

صفحة

- ١ - أنا خيرهم نسباً ٥
- ٢ - ابن سيد البطحاء ١٥
- ٣ - .. ويزغ نجم أحمد ٢٦
- ٤ - خديجة .. الطاهرة ٣٦
- ٥ - الرسالة والمعجزة ٤٨
- ٦ - .. وكان الصراع ٦٤
- ٧ - ملك لا يظلم عنده أحد ٧٤
- ٨ - باسمك اللهم ٨٥
- ٩ - وجاءت النصره من السماء ٩٩
- ١٠ - وكان المستقر وكانت النصره ١٢٤

١٩٨١/٣٤٧١	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٧٣٤٩-٢٢-X	الترقيم الدولي

١/٨٠/٣١٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

